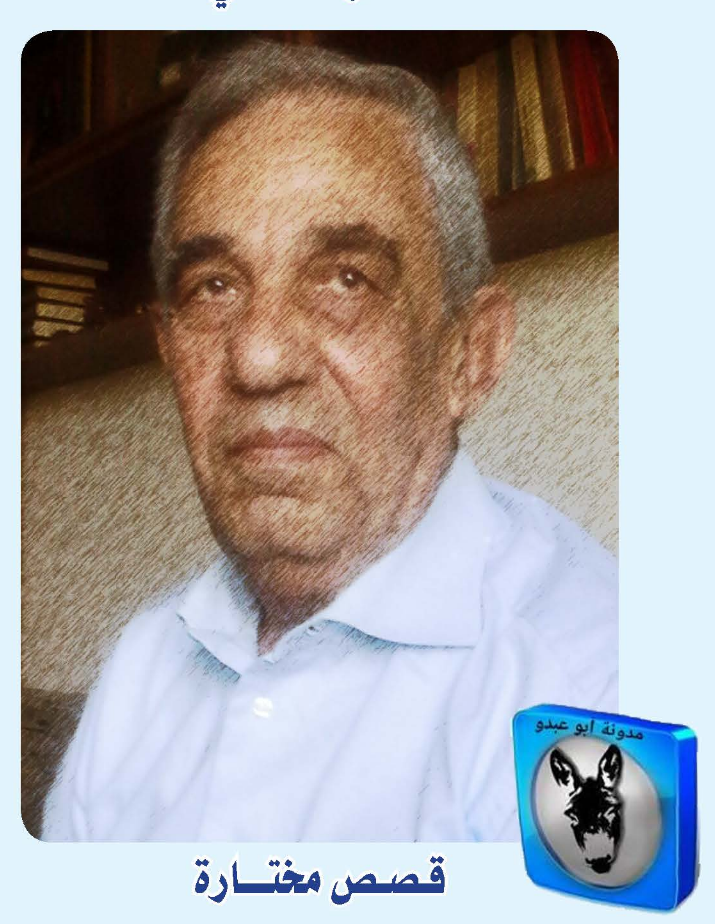
القطار الدمية!

نصر شمالي



قصص مختارة

القطار الدمية!

نصر شمالي

قصص مختارة

عنوان الكتاب:
القطار الدمية - نصر شمالي
الموضوع:
قصص مختارة
الصدور الأول (الالكتروني):
دمشق - نيسان/ إبريل ٢٠١٥
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
البريد الالكتروني:
ns_shamali@yahoo.com

الغلاف والإخراج الفني: هدى شمالي

المحتويات:

القطار الدمية!

(المكان والزمان: مفتوحان على المطلق)

تكّومت جدّتي على كرسيّها المتحرك المريح، مستقرّة استقراراً تاماً، مثل قطعة قماش ليّنة سقطت من علوّ قامة، واستقرّت كيفما اتفق! الكتفان والذراعان والكفّان، والساقان والقدمان، جميعها مستقرّة، كأنما هي غير قابلة للحراك! لكن الوضع فوق كتفيها بدا مختلفاً، فالعنق مشرئب، متصلب، ومتجه بقوة نحو الأمام. والعينان مفتوحتان على سعتهما، وتبرقان بقوة خلف عدستي نظارتها، التي تفصل بحزم بين العينين وأرنبة الأنف، وتحدّقان باستقامة، وبتركيز شديد، كأنهما تتابعان حدثاً عنيفاً أو حواراً غاضباً! أما شفتاها المتقلصتان، فترتعشان كأنهما تحاولان الحيلولة دون انفجار عاصفة كلامية عاتية، محبوسة خلفهما!

هكذا يمكن أن يكون انطباع عابر السبيل عن وضع جدّتي، أما أنا فأعرف أنها لاتتابع ما يدور أمامها وحولها، ولا تشعر به، وأنها لا تستعد للنطق بأية كلمة، فرأسها بجميع مكوناته مستقرّ، متكوّم بدوره، إنما على طريقته!

أما أبي، فقد وقف على مقربة من جدّتي، منتصب القامة مهيباً، معتدّاً بقيافته الرجّالية، وقد شبك ذراعيه يبعضهما، تحت صدره وفوق بطنه بالضبط، وراح يطلّ من عليائه، وقد تسلّح بابتسامة بدت واثقة! لكنني أعرف أنه استعار هذه الابتسامة، وأنه انتقاها بعناية وجهد، معتقداً أنها تلائم الموقف، وهاهي الابتسامة المستعارة تفشل في إخفاء عجزه عن الانسجام مع ما يدور حوله، فخلف نظرته المطمئنة، الواثقة ظاهرياً، تلوح نظرة ثانية، مضطربة، مندهشة، ترمقني بقلق وحذر من فوق كتف النظرة الأولى، كأنما هي تقع عليّ وتكتشف وجودي لأول مرة! وكيف لا يكون الحال كذلك

وقد ضبطته يرمق جدتي خلسة ، متلهفاً مستنجداً، مثل طفل يفتقد الأمان، ويحاول لفت انتباه أمه، متوقعاً أن تدعوه في أية لحظة للارتماء في حجرها، وإخفاء وجهه في صدرها، متكوّراً كالجنين!

وأما أمي، فقد أحاطت بي ، تظللني وتحتويني بإحكام، وثبات، ودقّة، وتغمرني مثل هالة نورانية، وتزيح عن عينيها خصلة شعر وخطها الشيب، بينما هي تأمرني: لاتتردّد.. إياك والتردّد.. اقفز إلى مقطورتك!

نظرت إلى حيث أشارت. لقد توقف قطار إزاءنا مستعداً للانطلاق! راح القطار يحمحم، مثل حصان جامح انغرست حوافره عرضاً في الوحل، وسوف ينطلق بأقصى سرعته خلال لحظات !

كنّا على رصيف، في محطة قطارات لا تظهر بداياتها ولا نهاياتها. القطارات مقبلة مدبرة بلا انقطاع. حركتها تتسارع ولا تتباطأ. ضجيجها يشتدّ ولا يضعف. زحام الناس يتزايد ولا ينقص. وحمّى الاستقبال والوداع تستعر أكثر فأكثر، على مدار الساعة. القادمون، والراحلون، والمستقبلون، والمودّعون، اختلط بكاؤهم بضحكهم، وحزنهم بسرورهم، اختلاطاً مروّعاً، فالكلّ قادم راحل، والكل مستقبل مودّع!

عادت أمي تأمرني بحزم وهي ممسكة بكتفيّ : اقفز.. اقفز إلى مقطورتك!

ولكن كيف أفعل ما تأمرني به وأصابع كفيها متشبثة بذراعيّ، تحت الكتفين، يشتدّ تشبّثهما ولا يضعف؟ إنها تأمرني دون أن تطلقني! ثم إنّ القيد لا يقتصر على قبضتيها، بل هناك أيضاً روحها المتشبّثة بروحي، فكيف أستطيع التحرّر والانطلاق من دون أمي، وبعيداً عنها؟ لسانها يأمرني بالانطلاق، بينما عيناها، وقبضتاها، وروحها، تأمرني أن لا أطيع أمرها!

كررت أمي متوهّمة الحزم: قلت لك لا تتردّد.. التردّد عادة سيئة!

رحت أحاول تفكيك قيودها التي تؤلمني وتعيقني، والتي أتشبث بها وأستعذبها، وأحبّها إلى حدّ البكاء! وبينما أنا أحاول، انتبهت إلى أبي، وهو يطلّ عليّ من عليائه بقدر من التركيز. لقد أخذ نفساً عميقاً جعل صدره يرتفع أكثر من المعتاد، واستعار إشراقة أرادها حقيقية ، أو مقنعة، فلم ينجح، وانكشف افتعالها، حتى وإن لم يدرك هو

نفسه ذلك. ثم رأيته يتحوّل إلى جدّتي، كأنما هو يطلب مؤازرتها في أمر ما. كأنما هي تعي نظراته، وحركاته، بل وجوده برمته. وسرعان ما بدا غافلاً عني تماماً، ومنشغلاً بجدّتي تماماً، فهو لا يريد سوى نيل رضاها عن قيافته، ومهابته، ورباطة جأشه. لكنه عاد إليّ من غفلته، وخرج عن صمته ليأمرني بلهجة قائد يدير معسكراً للتدريبات العنيفة : لا تتردّد يا جهاد.. كن مقداماً!

توقعت أن يضيف : «مثل أبيك»! لكنه لم يفعل. ومن جهتي هممت أن أجيبه: « لست خائفاً، لكني خجل ومرتبك»! غير أني لم أفعل. لقد بهرني صوت أبي الرجولي، أما أنا فكنت أخشى حقاً سماع صوتي، لأنه صار خشناً مضطرباً منذ فترة، لكنّه لم يستقر على الخشونة بعد، ولذلك، ما زلت أتوقع، متوجّساً قلقاً، أن يفاجئني بصوت الصبي الذي كان، إذا ما نطقت. أليست محنة أنه لم يعد صوت صبي، لكنه لم يصبح بعد صوت رجل؟ أليست معاناة معذّبة، ومضحكة!

اكتشفت فجأة، على مقربة، سيدة تتشبث بذراع ابنتها، وتأمرها بعدم التردّد، وبالقفز إلى المقطورة ذاتها، والفتاة تبدو راغبة، متحفّزة، على الرغم من تمنّعها المشوب بابتسامة. أما أبوها، الواقف على مقربة منها، فقد بدا أكثر إشفاقاً، وأقلّ تعنّتاً وتظاهراً بالثقة من أبي.

أمرت السيدة ابنتها: اقفزي إلى مقطورتك يا حياة.. كفاك تردّداً! ورمقت زوجها بنظرة تأنيب دون أن يفعل ما يستحق عليه التأنيب. وما أن سمعت أمي ما قالته السيدة، حتى تكلّفت مزيداً من التظاهر بالحزم، ونهرتني بنبرة قوية: إلى المقطورة فوراً يا جهاد .. فوراً! وارتخت قليلاً قيودها التي تكبّلني، بحيث قدّرت أنّ التخلص منها صار ممكناً. أمّا أبي فلم يضف جديداً، لكنه راح يحملق بي أكثر، وقد اتسعت ابتسامته الواثقة، الفخور، المستعارة ، بينما هو يطّل من فوق!

حسمت أمري بغتة. انتزعت نفسي من قيود أمي، المضطربة المتراخية، وقفزت إلى القاطرة دون أن أنظر إلى الوراء، وفي اللحظة ذاتها، لحظة سقوطي في مقعدي بالضبط، سقطت الفتاة في أحضاني، كأنما نتيجة انجذاب لا إرادة لها فيه، مثلما تنجذب برادة الحديد إلى المغناطيس! وقد انطلق القطار على الفور، مدمدماً، صافراً،

بينما نحن نتعانق عناقاً محكماً بدا أبدياً!

***

اختفت المحطة على الفور، وتلاشى ضجيج القطارات وصخب الناس، وطيلة اللحظات التي تلت انطلاقنا نسينا أننا في مقطورة، تقلّنا من لا بداية إلى لانهاية. المكان الضيّق، المضطرب، تحوّل إلى جزيرة أحلام، هادئة، مفتوحة على اللانهاية، وليس فيها سوانا. فضاء رحب، أسطوري ساحر، تجتازه وتغمره بلا انقطاع سلسلة سحب وردية، شفّافة، مفعمة بالأريج، كأننا في جنان الخلد!

لكن ذلك اللامعقول كان كفيلاً باضطراب يقيني، وإثارة هلعي. هتفت بقوة أناديها، كأنها بعيدة عنّي، في قارّة أخرى: حياة! فهمست مستجيبة، وقد تكوّرت في أحضاني: جهاد! وقعت في حيرة شديدة من أمري، بين إحساسي بقربها ووجودها، وإحساسي ببعدها وغيابها. خاطبتها، محاولاً طمأنة نفسي، وتبديد مخاوفي: ما أروع أن نكون معاً، وواحداً إلى الأبد! أجابتني: نسير يداً بيد، معاً وواحداً إلى الأبد! استمعت إلى جوابها بشغف ورع. لكنه لم يخفّف من اضطراب يقيني، بل زاده اضطراباً. وتساءلت بأسى: أي «أبد» هذا الذي نلحّ عليه!

***

يا لها من لحظات مثل سنوات، أو سنوات مثل لحظات. غير أن الحال انقلب فجأة رأساً على عقب، فتبدّلت السحب الرقيقة المنعشة بدخان ثقيل خانق، واجتاحت الفضاء المحدود من حولنا أسراب خفافيش ضخمة، قبيحة ومتوحشة وصاخبة، ثم سيطر الظلام، فتشوّش السمع، وتعطّل البصر، وخيّل إليّ أنني أسمع نداء رفيقتي، قادماً من مكان ما يستحيل عليّ تحديده، وتقدير قربه أو بعده!

كان نداؤها مضطرباً، مشروخاً، مشحوناً بالذعر، يطلب النجدة بنبرة يائسة: جهـ ـ اد! وكانت استجابتي زمجرة رهيبة، مجلجلة متدرّجة، ملأتني رعباً، أطلقتها وقد كبّلتني أصفاد ثقيلة: حيـ ـ اة! وصرت راغباً في أن أكون حجراً أصمّاً، أو أن لا أكون أبداً، على أن تتوقف حالاً تلك الوحشة، وأن يتوقف حالاً ذلك الرعب، ويزول ذلك العذاب الفظيع. نسيت الأسماء، والوجوه، والأشياء، والتواريخ، واستولت على كياني

أمنية ملحّة واحدة: العدم!

كنت وحيداً تماماً، تخلت عني نفسي ذاتها. ثم انقشع الدخان، لتحلّ محلّه سحابة صفراء اللون، أفيونيّة الفعل، تتراقص عبرها غادة مقبلة نحوي. كان للغادة سحر أساطير الجنّ. وقد راحت تدانيني، وترامقني، ثم تلامسني وتعانقني، فاستجبت مأخوذاً، وعدت شغوفاً بالعيش إلى حدّ ممض ومؤلم. فكّرت مذهولاً: يا لها من انقلابات متلاحقة، متناقضة! كيف يمكن لشبكة الأعصاب والحواس تحمّل مثل هذه التحولات المفاجئة العنيفة، من حال إلى نقيضه، دون أن تصبح شظايا زجاج محطّم؟

ما كدت أنتهي من استكمال فكرتي التأمّلية، عن الانقلابات المدمّرة، حتى تبخّرت الغادة مثل قطرة ماء على صفيح محمّى، مثل لمح البصر، وأقبل تنّين يخبّ وهو ينفث النيران من شدقه الواسع، الغائر مثل كهف. أحسست أنّ كمّية الأكسجين الضرورية تتناقص سريعاً في فضاء المقطورة، المغلق الضيق، الذي أضاءه اللهب الوحشي، فأوشكت على الاختناق، وصرخت مستنجداً: حياة! فإذا بي أكتشف وجودها إلى جانبي، بل في أحضاني تطوّق عنقي بذراعيها، وتغذّي رئتيّ الضعيفتين بأنفاسها! ثم إذا بالأفق الضيّق ينفتح على مساحات ملوّنة، خلاّبة، لا تحدّها حدود، ولا تعكّر صفوها شائبة، وفي نهاياتها لاحت حديقة أشواق ساحرة لا تطال، فاسترخيت أستمتع بتأملها من بعيد، مكتفياً باسترخائي، راضياً عن تأملاتي، متمسّكاً بتفاؤلي، وراجياً دوام هذه الحال!

***

لكنني فوجئت بالقطار يتوقف حيث انطلق! ترجّلنا بخطوات متردّدة، ونحن نتلمّس بحذر مواقع أقدامنا، لنجد أنفسنا بغتة على الرصيف ذاته، في الجمع ذاته! ولأكتشف بأسى عميق، إنما من دون دهشة، أنّ جدّتي وأبي لم يكونا بيننا، ولا وجود لهما، بينما أمي مكوّمة في كرسيّ جدّتي! النظّارة تفصل بحزم بين عينيها وأرنبة أنفها. عنقها ممدود إلى الأمام، وشفتاها ترتعشان بقسوة، كأنهما تحولان دون انفجار عاصفة كلامية. لكنّها لم تكن تستعدّ للنطق بشيء، ولم تكن تتابع أي شيء، ومع ذلك، رحت أستعرض أمامها طولي، وعرضي، وقيافتي، متوقّعاً نيل رضاها، ومتلهّفاً أن تدعوني

للارتماء في حجرها، وإخفاء وجهي في صدرها!

استيقظت من غفلتي، والتفت إلى حياة، ففوجئت أنّها منصرفة عنّا، تتشبّث بذراعي فتىً مذهول، أخرق، متردّد، ينقّل نظراته بين أمه وجدّته وبيني، ثم رأيتها ترفع عن عينيها خصلة شعر وخطها الشيب، وسمعتها تأمره دون أن تطلقه: لا تتردّد يابني.. إياك والتردّد.. اقفز إلى مقطورتك!

التقت نظراتي بنظرات الفتى، فاستقمت في وقفتي، وشبكت ذراعيّ تحت صدري وفوق بطني، وأطللت عليه من فوق، مستعيراً ابتسامة مناسبة، وقلت بصوت رجوليّ تماماً : لا تتردّد يا بني.. كن مقداماً!

***

مرج الخيل

(المكان والزمان : دمشق - ربيع عام ١١٨٤ ميلادي)

(١)

كانت الشمس تتوارى متمهّلة خلف قمة جبل الشيخ (الحرمون) المكلّلة بالثلوج، عندما وصلت القافلة الكبيرة إلى المشارف الجنوبية لمدينة دمشق، مخلفة وراءها سهول حوران . وأمام استراحة ضخمة من تلك الاستراحات التي تنتشر على الطرق البرّية في طول البلاد وعرضها، والتي توفّر للمسافرين جميع احتياجاتهم، بدأت القافلة تحطّ رحالها. لقد نادى المنادي أنّ المبيت هنا، وأنّ القافلة سوف تدخل مدينة دمشق غداً.

هذه القافلة بدأت رحلتها من القاهرة، وقد التحق بها المسافرون القادمون من برقة قبل انطلاقها، وفي كلّ مدينة مرّت بها كان أولئك الذين انتهت رحلتهم يتركونها، وينضم إليها مسافرون جدد. وهكذا كانت تركيبتها تتبدّل باستمرار، فتتجدّد حيويتها، وتتغيّر ألوانها، وتتنوع الأحاديث والأخبار والروايات والأشياء فيها، الأمر الذي يجعل الرحلة عظيمة المتعة والفائدة.

كانت تلك رحلة داخلية، روتينية عادية، تبدأ من القاهرة، أو من برقة، وتنتهي في الموصل، أو بغداد. ولم يكن ثمّة أخطار غير عادية، متوقّعة، تبعث على القلق، وتعكّر أمن القافلة وطمأنينتها، سوى في تلك المسافة القصيرة، على تخوم فلسطين المحتلة من قبل الفرنجة، وبخاصة في تلك المناطق التابعة لمدينة الكرك المحتلة. ولذلك اتخذ حرّاس القافلة الاحتياطات الضرورية، إضافة إلى دعمهم بفصائل عسكرية أرسلتها

قيادة الجيوش العربية العاملة في الميادين المحيطة بفلسطين. وقد ظلّت تلك الفصائل الإضافية في رفقة القافلة حتى ابتعدت، وصارت في منأى عن غارات رينالد شاتيون، حاكم الكرك الشقيّ.

***

بالإضافة إلى التجار وبضائعهم الثمينة، الذين كانوا يشكلون أكثرية القافلة، كان هناك الجنود الذين أنهوا خدمتهم في ميادين القتال لأسباب مختلفة، وهاهم الآن في طريق العودة إلى بلدانهم وأهلهم. كذلك ضمّت القافلة أعداداً من موظفي الدولة المدنيين والعسكريين، من مختلف المراتب، سواء أولئك الذين يرافقون البريد العادي باستمرار، أو أولئك الذين انتدبوا لتأدية وتنفيذ مهمّات محدّدة، بعضها بسيط وبعضها خطير.

وقد سافرت مع القافلة أيضاً فرق فنية، فيها المنشدون والموسيقيون والراقصون، وفرق ثقافية، وشعراء جوالون، وأطباء وغيرهم من المختصين. كذلك كان هناك الحواة، والمتسكعون من الدراويش والمغامرين. لقد كانت القافلة تضمّ أناساً من مختلف الأوساط، والأعمار، حتى لتكاد تكون صورة طبق الأصل عن مجتمعات ذلك الزمان.

***

الاستراحة، التي حطّت القافلة رحالها حولها وفيها، كانت على بعد حوالي عشرين كيلو متراً من دمشق، وهي تضمّ المسجد، وعشرات غرف الإقامة والمبيت، وعشرات الاصطبلات الفسيحة، المنظمة أحسن تنظيم، للعناية بمئات الخيول. ناهيكم عن المطابخ الكبيرة الكافية لتلبية حاجات النزلاء، وعن العيادة الطبية البشرية، والعيادة البيطرية. وكانت ساحتها فسيحة، مرتبة ومجهّزة بحيث تصلح سوقاً لتبادل السلع، ومسرحاً لتقديم العروض الفنية، وإقامة الندوات الأدبية. لكنها، مع ذلك، ما كانت لتتسع لأكثر من ألف شخص ضمّتهم القافلة. غير أنّ الكثيرين كانوا قد رتّبوا أمورهم مسبقاً للمبيت في العراء، خارج جدران الاستراحة، في خيامهم الخاصة.

لقد نزل في غرف الاستراحة (الخان) كبار التجار، والموظفين والضباط، وكذلك عدد من الشخصيات الأدبية والفنية والعلمية الرفيعة المقام. أمّا أتباعهم، والكثير من

المسافرين، فقد انصرفوا إلى نصب الخيام، وترتيب البضائع والحاجيات بالطرق التي تحميها من تقلبات الطقس، واطمأنوا إلى مرابط دوابهم، وسقايتها وعلفها، ثمّ راحوا يوقدون النيران لإعداد طعامهم، وللتغلب على برودة الليل.

كان الطقس لا يزال بارداً في ذلك المساء من أماسي شهر آذار/مارس ١١٨٤م. ولقد كان ممكناً دخول دمشق في وقت متأخّر من المساء، غير أنّ المبيت خارج المدينة يراعي جملة من الاعتبارات اللطيفة التي تعارف عليها الناس، منها أنّ من الذوق الرفيع، ومن حسن التقدير العملي، أن يكون الصباح هو الوقت المناسب لعودة المسافر الغائب إلى أهله، ولحلول الضيف على مضيفيه، إذا لم يكن ثمة ما يفرض خلاف ذلك. إنّ الصباح يتيح للمستقبلين مجالاً أرحب للاحتفاء بالضيف أو بالابن العائد. ثمّ إنّ المبيت خارج المدينة يتيح للمسافر مجال النزول على مستقبليه نظيف الجسم والثياب، مهندماً، ومرتاحاً من مشقة السفر الطويل، وبشوشاً ..الخ!

(٢)

بعد أداء صلاة العشاء جماعة في صحن الاستراحة الواسع، المضاء إضاءة جيدة، تفرّق الناس فرادى وجماعات. منهم من خرج إلى خيمته، ومن ذهب لتفقّد دوابه التي تبيت في العراء، ومن آوى إلى غرفته، أو خيمته، وتجمّع آخرون حول الفنانين الذين كانوا يستعدّون للعزف والغناء، وآخرون التفّوا حول شاعر كبير، أو عالم شهير. كذلك، كان هناك رجال تعارفوا حديثاً يتبادلون المعلومات حول أسعار السلع في الصين والهند، في مغرب العالم ومشرقه وفي شماله وجنوبه. بل إنّ بعضهم كان يعقد اتفاقات ويوقّع عقوداً بناءً على تلك المعلومات!

***

على مقربة من بوابة الاستراحة، وقف ثلاثة ضباط شبّان، يرتدون لباس الميدان، يتبادلون الحديث.

قال الأول: لنتفقّد الجنود أولاً، وبعدها سأذهب معكما حيث تشاءان.. إلى الحفلة الفنية أو الندوة الأدبية، لا فرق عندي.

قال الثاني: أقول لك أنّ الاستماع إلى هذه الفرقة الموسيقية البغدادية فرصة عظيمة يمكن أن لا تتكرّر، ولا تجوز إضاعتها.

قال الأول: لكننا استمعنا إليها قبل أيام في جرش..

قاطعه الثاني: تقول استمعنا إليها في جرش؟ أنت فعلاً لا تدرك قيمة ما نتحدّث عنه.. أقول لك إنها أشهر فرقة على الإطلاق، وهي في طريقها إلى بغداد، أما نحن فقد انتهت رحلتنا في دمشق، أي أننا قد لا نجتمع بها أبداً بعد اليوم...

قال الأول مبتسماً: فليكن.. كما تشاء.. أنا موافق يا أخي.

قال الضابط الثالث: اتفقتما؟..إذن دعونا نذهب الآن لتفقّد الجنود، ولنسرع قبل أن يبدأ الحفل.

هؤلاء الضباط الثلاثة التحقوا بالقافلة من مقرات القيادة العامة للجيوش العربية، في منطقة شرقي نهر الأردن، وقد أوكلت إليهم عدّة مهام، منها مرافقة عشرات الجنود الجرحى المحالين إلى مستشفيات دمشق، أو إلى التقاعد بعد أن أصبحوا عاجزين عن مواصلة الجهاد بسبب إصاباتهم المعوّقة.

كان الضباط الثلاثة قد أشرفوا، منذ اللحظات الأولى، على إقامة معسكر صغير، فوق بقعة مناسبة قريبة من الاستراحة، يبيت فيه الجنود الذين انتهت خدماتهم الحربية. وهم أعطوا كلّ انتباههم وعنايتهم لقضايا النظافة، والهندام، والانضباط والنظام، تمهيداً لدخول المدينة في الصباح بصورة لائقة. تفقّدوا المعسكر الصغير خيمة خيمة، فوجدوا كلّ شيء على ما يرام.

قال الضابط الثاني: فلننطلق الآن بسرعة إلى الحفل.

قال الضابط الثالث: قبل أن نمرّ بخيمتي ونتفقّدها؟

سأل الثاني مستغرباً: ولماذا نتفقّد خيمتك؟

ضحك الثالث وقال: هل نسيت ضيفي؟

صاح الثاني: آه.. معك حقّ.. ولكن لماذا نتفقّده؟..ألم تعيّن رجلاً لحراسته وخدمته؟

أجاب الثالث: بلى، ومع ذلك دعنا نذهب لتفقّده.. إنّه مهمّتي الخاصة التي كلّفني

بها الناصر صلاح الدين شخصيّاً!

***

كان بعض الحواة يقدّمون عرضاً للألعاب النارية على مقربة من خيمة الضابط الثالث. وإلى جانب الخيمة انتصب واقفاً حصان لونه أشدّ سواداً من ظلمة الليل، ولولا الألعاب النارية لكانت تعذّرت رؤيته. وعندما أصبح الضابط على بعد خطوة منه، رفع الحصان رأسه بشموخ وكبرياء، فكأنّما هو يظهر جاهزيّته للانطلاق! كان وميض الألعاب النارية يضيء لثوان رأس الحصان الشامخ. كان حصاناً مهيباً حقاً، إلى حدّ جعل الضابط الثاني يقول وهو يتأمّله باحترام: انظروا! إنّه يتوجّه في وقفته إلى الجنوب، فكأنما هو يتطلّع إلى بيت المقدس!

اقترب الضابط الثالث من الجواد الأدهم المهيب، ومرّ بكفّه على وجهه، وعنقه، وظهره، وقائمته المصابة في أعلاها عند المفصل، ثمّ خاطب رفيقيه بنبرة رصينة قائلاً: كان القائد العام يشرح لي مهمتي وهو يمسح بكفّه على وجه هذا الجواد الكريم وعنقه.. قال لي: هذا الحصان النبيل أبلى في المعارك أحسن البلاء، وأنجز مهمات فريدة في دقتها وخطورتها.. إنّ إصابته بالغة تجعله يعرج تحت ثقل فارسه.. خذه معك إلى دمشق.. اعتن به طيلة الطريق، ولا تدع أحداً يمتطيه.. وفي دمشق، أوصله بيدك إلى «مرج الخيل» ، وأطلقه هناك بعد أن توصي به المشرفين على المرج!

أضاءت الألعاب النارية المكان إضاءة قوية لبضع ثوان متصلة، فظهر وجه الأدهم واضحاً كلّ الوضوح. كان لا يزال منتصباً، متأهباً، شامخاً برأسه، متطلّعاً نحو الجنوب. لقد خيّل للضابط الثالث، وهو يمعن النظر في عيني الحصان عن قرب، أنه يرى فيهما ما يشبه الدموع!

(٣)

في دمشق، ترك القافلة أولئك الذين انتهت رحلتهم، وانضمّ إليها مسافرون جدد يقصدون حمص، وحماة، والمعرّة، وحلب، والموصل، وبغداد. وقد توجّه الضباط والموظفون إلى قلعة صلاح الدين، حيث أبلغوا عن وصولهم وعن طبيعة مهماتهم.

لقد دخل الحصان الأدهم القلعة بدوره، فقضى داخلها عدّة ساعات، ثم غادرها برفقة الضابط الثالث إلى مرج الخيل، حيث أمر الناصر صلاح الدين الأيوبي بأن يطلق هناك.

إنّ مرج الخيل هو تلك الجزيرة الطويلة، القليلة العرض، الممتدّة من ساحة المرجة (مركز دمشق الحالي) إلى منطقة الربوة (حوالي خمسة كيلومترات). وبين هاتين النقطتين لم يكن ثمّة غير المرج المحاط من جانبيه بفرعين من فروع نهر بردى السبعة. وقد خصّص السلطان المجاهد نور الدين محمود هذا المرج البديع للخيول المتقاعدة التي سحبت من ميادين الخدمة، بسبب إصابتها أم بسبب هرمها، تقضي في رياضه الغنّاء بقيّة حياتها تحت إشراف الدولة (في هذا الوقف) معفاة من أيّ عمل، حرّة طليقة ومعزّزة مكرّمة!

***

انطلق الأدهم متمهّلاً فوق المرج اللدن، الندي، الموشّى بأزهار الربيع. كان ينقل قوائمه برشاقة، ويتقدّم بشموخ وثقة من يعرف قدر نفسه حقّ المعرفة. وقد رفعت بعض الخيول رؤوسها عن العشب، وراحت تتابعه بتمعّن، فتوقف عن السير يبادلها النظرة المتمعنة. كان ذلك استطلاع أوّلي صامت متبادل من بعيد، قطعه صهيل ترحيبي، قويّ حادّ، أطلقه حصان أصهب، تميل شقرته إلى الحمرة، قبل أن ينطلق خبباً في اتجاه القادم الجديد المهيب.

ظلّ الأدهم واقفاً في مكانه، ثابتاً تماماً، لا يتحرّك فيه عضو واحد سوى أذناه، في انتظارِ وصول الأشهب إليه. كان الأدهم يبدو لمن لا يعرف شيئاً عن إصابته فتيّاً وصحيحاً. وقد انتصب بقوائمه الدقيقة، وصدره العريض، وبطنه الضامرة، وظهره المنخفض، وعرفه الكثيف الذي يتراقص فوق جبينه وبين عينيه، ولونه الفاحم اللامع الذي لا تشوبه شائبة، فبدا في وقفته أنموذجاً للحصان العربي الأصيل.

ما أن وصل الأصهب إلى حيث يقف الأدهم منتظراً إياه حتى باشر على الفور إظهار مودّته، بالحمحمة واللمسات الترحيبية بالرأس، فاستقبله الأدهم على الفور بمثلها.

لقد أدرك الأصهب من النظرة الأولى، وهو الخبير المجرّب الذي عركته السنون

والتجارب، أنه أمام نزيل جديد غير عادي، فتوجه إليه، بفضول واحترام، سائلاً: هل يزعجك، أيها الأدهم النبيل، أن أرحب بك، وأتعرّف على الجهة التي جئت منها؟

أمعن الأدهم النظر في وجه محدّثه، كأنما هو يزن قيمة وجدّية السؤال، ثم أجاب باقتضاب: من الجنوب.. من فلسطين!

حمحم الأصهب منفعلاً ومتسائلاً بلهفة: آه.. من فلسطين؟ إذن فأنت تحمل أخباراً كثيرة عن سير المعارك هناك..

ذلك الانفعال، وتلك اللهفة، والسؤال عن أخبار الجبهات، جعلت الأدهم يطمئن إلى صديقه الجديد، من حيث السويّة، والنضج، والفهم، فحدّث نفسه بأنها بداية طيبة لحياته الجديدة في مرج الخيل. وقد عاد الأصهب يسأله: هل يمكنني أن أعرف أين كنت تخدم تحديداً؟ هذا إن لم يكن لديك مانعٍ طبعاً!

أجاب الأدهم بنبرة متأنية: لا مانع أبداً.. كنت أخدم في مفارز القيادة العامة! وصمت للحظة، أجال خلالها نظره في أنحاء المرج، ثم أضاف: .. تحت تصرّف هيئة الأركان العامة.. بالتحديد تحت تصرّف القائد العام صلاح الدين..

أحسّ الأدهم بشيء من الندم بعد أن لفظ جملته الأخيرة، فقد خشي أن يبدو متبجّحاً، أو كأنما هو يحاول تسويق نفسه بامتداحها والإعلاء من شأنها، وهذا بالطبع ضرب من ضروب الابتزاز الذي يمقته أشدّ المقت! وبالفعل، بدا عليه الحرج والارتباك بسبب ما قاله، مع أنه قال الحقيقة بالضبط، بل أقلّ، فهو كان أحد ثلاثة خيول اعتمد عليها صلاح الدين شخصياً أكثر من غيرها، فأبقاها على مقربة منه، جاهزة للمهمات الدقيقة الخطيرة!

بعد أن قال الأدهم ما قاله، وفكّر بما فكّر به، تململ في وقفته، وصار يحرّك قوائمه من دون سبب، ثم أحنى رأسه الشامخ فتقوّس عنقه الطويل بصورة رائعة الجمال. أما الأصهب، الذي بدا أنه لا يقلّ نبلاً وحكمة، وإن بدا أقلّ جمالاً وفتوّة، فقد لاحظ وفهم بسرعة ما يختلج في نفس النزيل الجديد، فازداد تعظيماً واحتراما له.

تراجع الأصهب خطوة واحدة إلى الوراء، ثم خاطب الأدهم، داعياً إياه، إن لم يكن متعباً، وإذا كان راغباً، إلى جولة استطلاعية في أنحاء المرج، وللتعرف على بعض

النزلاء المحترمين، الذين سيقيم معهم ويشاركهم الحياة الجديدة، فأبدى الأدهم رغبته وسروره شاكراً.

(٤)

بدا المرج في نظر الأدهم جنّة حقيقية ليس أحلى ولا أروع من قضاء بقية العمر فيها، فانتعشت روحه أيّما انتعاش. هذه المراتع الخصيبة، النضرة، الملونة بأجمل الألوان، أيقظت ذكرياته الحميمة عن أيام فتوّته الأولى، حين كان يجري خلف أمه وحولها حرّاً طليقاً، خالي الذهن مرتاح البال! لقد أحسّ أنّ شبابه الأول يمكن أن يعود إليه!

كان الماء في مرج الخيل غزيراً، عذباً، سهل التناول، يبهج الأبصار وهو يترقرق بوداعة. وكان العشب غضّاً نديّاً ووافراً، سريع التجدد والنمو. وكانت الأشجار الظليلة موزّعة في جميع أنحاء المرج، كأنّ كلّ واحدة منها أيكة أعدّت بذوق ومهارة، فهي تدعوك للاستراحة والتنعّم في ظلّها. لقد بدت عناية الدولة واضحة ومؤثّرة، بخاصة في إقامة تلك الحظائر الظريفة، التي تأوي إليها الخيول عندما تحتاج إلى المأوى.

غير أنّ ما شاهده الأدهم، في صحبة الأصهب، من أسباب الحياة الرغدة، والنعيم والرفاه، لم يحل دون إحساسه بالأسف والحسرة والأسى على فراق الخيول المحاربة، وفرسانها المجاهدين، في تلك الميادين الطاهرة المقدّسة.

***

لم يمض ذلك النهار الأول حتى كان الأدهم قد تعرّف على مرج الخيل، من أقصاه إلى أقصاه، من المرجة شرقاً وحتى الربوة غرباً. وخلال تجوّله متمهّلاً مستطلعاً، ومتوقّفاً قليلاً هنا وقليلاً هناك، برفقة رفيقه الأصهب، الطيب الدّمث، تبادل أحاديث قصيرة مع عدد من الخيول الكبيرة، وسمع نبذاً من أخبارها. لقد كان الأصهب يقدّمه إلى النزلاء القدامى مشيراً بلباقة إلى مركزه في خدمة صلاح الدين شخصياً، وإلى قدومه حديثاً من فلسطين، فتبدي كبار الخيول إجلالها، وتعبّر عن احترامها، وتواعده بوقار على اللقاء في الحظيرة ليلاً من أجل الاستماع إلى أخباره. أمّا الخيول

الصغيرة، التي ولدت في المرج، والتي لم تغادره بعد أبداً، فكانت تظهر شغفها القوي ورغبتها الشديدة في الاستماع إلى أخبار الدنيا، وبخاصة أخبار جبهات القتال، حيث هي كانت تتطلّع بفارغ الصبر إلى اليوم الذي تصبح فيه أهلاً للالتحاق بالجبهات!

***

بدأ الظلام بالهبوط شيئاً فشيئاً على مرج الخيل، وكلما اشتدّ، وتلاشت مناظر الطبيعة تحت جنحه، ارتفع صوت خرير المياه وأضفى على المكان سحراً من نوع آخر. وقد انتقل الأدهم برفقة عدد من الخيول إلى الحظيرة التي أقيمت في مكان متوسط في المرج الطويل، وسرعان ما توافد عدد آخر من الأفراس كان بعضها يصطحب معه صغاره، وكذلك عدد من الخيول الفتية من مواليد المرج.

كانت تلك أول ليلة يبيت فيها الأدهم بعيداً عن المعسكرات والمخيمات والضباط والجنود، الأمر الذي كاد يصيبه بالكآبة لولا الحفاوة التي أحيط بها طيلة الوقت، والإصرار المهذّب على سماع أخباره. وقد سادت في الحظيرة لحظات صمت كان الجميع يحبسون خلالها أنفاسهم مترقّبين، وإن تخللها بعض الحمحمة التي فشل أصحابها في السيطرة عليها، بينما زجرت فرس ناصعة مهرها الذي ظلّ يتحرّك بلا توقّف، حركات تخطف الأبصار وتبعث على الابتسام.

كان السكون تامّاً، لا تشوبه سوى أصوات الليل البعيدة الساحرة، حين بدأ الأصهب الحديث فقال: والآن، ألا تتفضّل أيها الأدهم النبيل فتحدّثنا ببعض أخبارك التي نحن بشوق لسماعها؟

أجاب الأدهم: إنه لشرف لي أن تولوني اهتمامكم، وكم يطيب لي أن أحدّثكم بما يسرّكم، وأكون عند حسن ظنّكم.

ثم أطرق كأنما يبحث عن نقطة البدء في الحديث، بينما المهر الصغير يحاول القيام بحركة قمعتها أمه على الفور.

لقد استعصت عليه نقطة البدء، فتوجّه إلى الأصهب قائلاً: ولكن لماذا لا تتفضل أنت فتحدّثنا ببعض أخبارك وقد شاركت في ما لا يحصى من المعارك.. أنت كنت في الموصل.. وفي شيزر على نهر العاصي مع الأمير أسامة بن منقذ..

قاطعه الأصهب بأدب: أرجوك.. أين كلّ خدمة من الخدمة على مقربة من بيت المقدس، والخليل، وبيت لحم.. وفي مقرّ قيادة صلاح الدين؟ ثم إنني سردت أخباري على الحضور أكثر من مرّة.

قال الأدهم: على ذكر أسامة بن منقذ.. ذلك الأمير الطاعن في السنّ.. لقد رأيته مرّة على ضفاف نهر الأردنّ مجتمعاً إلى القائد العام.. وسمعته، في إحدى الأمسيات، يتلو أشعاره على مسامع الفرسان، وإنه ممّا يدعو للأسف أنك، أيها الأصهب، لم تكن في صحبته يومئذ.

(٥)

لم يصدر أيّ صوت عن أيّ حصان، أو فرس، أو مهر، بينما كان الأدهم يتحدّث. وعندما توقف عن الكلام استمرّ الصمت، وبدا جليّاً أنّ انتباه الجميع وتحفّزهم بلغ مداه.

رفع الأدهم رأسه، وبدأ حديثه: سوف أقصّ عليكم أنباء آخر أحداث شاهدتها وعشتها، وذلك لما تتضمنه من الوقائع الطريفة. كانت وقائع طريفة على الرغم من أنّ إحداها تسبّبت في إصابتي البالغة، وفي انتقالي متقاعداً إلى هذا المكان البديع. ذات يوم، وصلنا بقيادة صلاح الدين إلى مشارف حصن مدينة الكرك.. كان ذلك في شهر تشرين الثاني نوفمبر ١١٨٣، وقد جاء وصولنا مباغتة كاملة للفرنجة داخل الحصن، الذين وجدوا أنفسهم محاصرين ضمن طوق محكم من قواتنا.. ولكن، أتدرون من كان داخل الحصن غير حاكم الكرك؟ كان هناك بوهمند الثالث حاكم إنطاكية.. وريموند حاكم طرابلس الشام.. وكانت هناك الملكة ماريا كومنينا، وابنتها الأميرة إيزابيلا.. وخطيب إيزابيلا، أو عريسها المدعو همفري، الملقب بسيد تبنين.. كذلك، كان هناك، بالطبع، ذلك الشقي رينالد شاتيون حاكم الكرك بالذات، وكان..

صاح مهر فتي، منبهر ومتحفّز، مقاطعاً الأدهم: مهلاً ياعمّاه.. من هم هؤلاء الذين تعدّد أسماءهم؟ أنا لم أفهم!

قال الأدهم: إنهم من أمراء الفرنجة الصليبيين، وقد وضع كلّ واحد منهم يده على

بلدة عربية، وسمّاها مملكة، وجعلها إقطاعاً له ولأولاده من بعده..

عاد المهر يسأل: ولماذا جاؤوا من حصونهم وتجمّعوا في حصن الكرك؟

أبدت الخيول استياءها من لجاجة المهر، لكنّ الأدهم أجابه ضاحكاً: جاؤوا إلى حصن الكرك لحضور حفلة عرس!

هتفت الفرس البيضاء، خارجة لأول مرّة عن وقارها واحتشامها: حفلة عرس؟ سامحني أيها الأدهم النبيل.. ولكن، هل كانت تقام في الحصن حفلة عرس عندما حاصرتموه؟ ومن هو العريس؟ ومن هي العروس؟

فابتسم الجميع، وقال الأدهم: سوف أخبرك يا سيدتي.. كانت حفلة العرس في أوجها عندما حاصرنا الحصن.. كنّا نسمع بوضوح صخب الموسيقى، وضجيج الملاهي.. وكان الأمراء الصليبيون قد توافدوا..

قاطعته مهرة صغيرة، سائلة إياه بلهفة: ومن هي العروس يا عمّاه؟ هل شاهدتها؟ هل هي جميلة؟

هذه المرّة قهقه الجميع، وأجاب الأدهم برقّة: أنا لم أشاهدها يا بنيتي، لكني عرفت أنها الأميرة إيزابيلا، ابنة الملكة ماريا، وعرفت أنّ الأميرة العروس في الحادية عشر من عمرها، وأنها..

هتفت المهرة مستغربة: في الحادية عشرة؟ أليست صغيرة جدّاً على الزواج يا عمّاه؟

ردّ الأدهم: أنا متأكّد تماماً أنها كانت في الحادية عشرة يوم عقد قرانها، أمّا عن كونها صغيرة على الزواج، فلماذا تستغربين يا ابنتي؟ ألا نتزوّج نحن الخيول في سنّ أقلّ من ذلك بكثير؟

قهقه الجميع مرّة أخرى، بينما أحنت المهرة رأسها بخفر، فأسرع الأصهب يحاول بلباقة السيطرة على مسار الحديث!

(٦)

قال الأصهب: يبدو أنّ حفلة العرس كانت فرصة ومبرّراً لاجتماع كلّ ذلك العدد من الأمراء الصليبيين.. ولكن من هو العريس يا سيدي؟

أجاب الأدهم: هو، كما ذكرت، همفري، الملقّب بسيد تبنين. وحفلة العرس كانت بالفعل فرصة مناسبة لاجتماع الأمراء الذين يتشكّل منهم ما يسمى «مجلس البارونات»، وهو هيئة استشارية لملك القدس الفرنجي بولدوين. سوف أشرح لك خفايا هذه القضايا المعقدة في ما بعد. أمّا الآن، فأرى أن نواصل سرد أخبار العرس، والحصار.. كان صلاح الدين مصمّماً على تدمير حصن الكرك، والقضاء على حاكمه قاطع الطرق، الشقي الجاحد رينالد شاتيون.. العرب يسمّونه: أرناط!..

قاطعه مهر فتي قائلاً: ماذا فعل شاتيون هذا لكي تقرن اسمه دائماً بصفة الشقيّ، والجاحد؟

توجّه الأدهم بنظرة اعتذار إلى الفرس البيضاء والمهرة الفتية، ثم أجاب: حسن أنك لاحظت ذلك يا بني. رينالد شاتيون (أمير الكرك) هو مجرّد لصّ غادر قاتل يرتدي ثياب الملوك. وأنا شخصياً سمعت صلاح الدين يروي نتفاً من جرائمه المروّعة ضدّ المدنيين العزّل، وسمعته يقسم أنه سيقتله بيده إذا ما أمسك به!

قال الأصهب متعجّباً: يقتله صلاح الدين بيده؟ هذا غريب!

قال الأدهم بحزم: نعم، هو أقسم أن يقتله بيده، وإني لأرجو أن يبرّ بقسمه. أنت لا تستطيع أن تتصوّر أيّ مجرم، أيّ ضبع، هو شاتيون.. ما رأيك أنّه نظّم محاولة لسرقة رفاة النبي محمد (صلعم) من ضريحه في المدينة المنورة، ونقلها إلى الكرك، طمعاً بأموال الزائرين لقبر النبي! ثمّ إنّه لا يحفل باتفاقيات الهدنة، فيجدها فرصة لقطع طريق القوافل التجارية، وقوافل الحجيج، ويستولي على الأموال والبضائع، وينكّل بالنساء مثل الرجال، ولا يرحم حتى الأطفال والشيوخ. ولكن، ولكن ماذا تقولون إذا علمتم أنني أصبت إصابتي البليغة، التي أقعدتني، بسبب رينالد هذا؟ والأغرب: دفاعاً عن رينالد؟ هل تصدّقون؟ بل إنّ إسهامي في الدفاع عنه، وفي إنقاذ حياته، حدث بأوامر من صلاح الدين شخصياً!

***

حمحمت الخيول متعجّبة أشدّ العجب، ولم يعد أيّ منها بقادر على استنتاج أيّ تفسير منطقي، فتزاحمت حول الأدهم وهي تضرب الأرض بحوافرها، متوتّرة نافدة

الصبر، مرسلة آذانها الصغيرة باتجاهه دائماً.

قال الأدهم بقليل من الانفعال: ولكن، اسمحوا لي أن أوضّح لكم بإيجاز جانباً من خلفيات المعارك، بعيداً عن الكرك، كي تفهموا ما حدث لي. كان صلاح الدين قد عاد إلى دمشق، التي اتخذها عاصمة له في ٢٤ آب/أغسطس ١١٨٣، بعد أن أشرف بنفسه على توحيد وتنظيم المناطق الشمالية الشرقية، فصارت الدولة العربية ممتدة من برقة إلى الموصل. ظلّ صلاح الدين يعمل بدأب، ليل نهار وطيلة سنوات، من أجل تحقيق هذه الوحدة. وقد سمعته أكثر من مرّة يردّد أنّ الاحتلال الاستيطاني لا يمكن التغلّب عليه قبل تحقيق الوحدة، ولذلك أستطيع أن أؤكد لكم اليوم أننا قطعنا أكثر من نصف الطريق إلى النصر والتحرير!

كان الأدهم يتحدّث بتؤدة، وبقوة، وبثقة، وقد تركت كلماته أبلغ الأثر في نفوس سامعيه. وهو أضاف عندما لاحظ الاهتمام والترقّب والتوتّر: ليست عملية حصار الكرك بالمعركة الأساسية، بل مجرّد إجراء عسكري لتحرير طرق القوافل، والحفاظ على التواصل بين المشرق والمغرب، وتأديب ذلك الأفّاق رينالد!

(٧)

كان قد مضى جزء ليس بالقصير من الليل. وقد صمت الأدهم، وراح يصغي إلى أصوات الليل، وخرير المياه، حتى لقد بدا كأنما هو غفل عن مكان وجوده الجديد. وقد احترم الحضور صمته، فظلّوا لبضع دقائق صامتين وساكنين بدورهم. غير أنّ المهر الفتيّ لم يعد قادراً على مواصلة الصمت والسكون، فاستجمع أطراف شجاعته، وهتف: عمّاه.. أخبرنا.. كيف أصبت دفاعاً عن رينالد؟ ألم تقل أنّ هذا ما حدث؟

أجابه الأدهم: نعم، هو ما حدث بالضبط يا بنيّ.. سوف أشرح لكم كيف حدث ذلك. عندما وصلنا إلى مشارف مدينة الكرك، وبدأنا هجومنا من أسفل المدينة، كان رينالد شاتيون خارج الحصن برفقة عدد قليل من فرسانه. وقد فرّ في الحال في اتجاه بوابة الحصن، وطارده عدد من فرساننا. وعند الجسر المؤدي إلى بوابة الحصن، القائم فوق الخندق، دارت معركة طاحنة، تابعها صلاح الدين بانتباه شديد، وبإعجاب شديد

أيضاً. وهو لم يأمر بإرسال المزيد من الفرسان، وحسمها على الفور لصالحنا، لأنّ بسالة أحد الفرسان الفرنجة نالت إعجابه، حيث ظلّ يدافع عن سيّده شاتيون بثبات، بينما سيّده يريد أن يفلت برأسه ويجتاز الجسر إلى داخل الحصن غير آبه لمصير رفاقه الذين قتلوا جميعاً ما عدا ذلك الفارس الشجاع، الذي واصل القتال وحيداً، فصار يلقي بنفسه أمام سيوف فرساننا كي يحول بينهم وبين سيده. وقد صرعت السيوف حصان الفارس، فتهاوى على الأرض، واستمرّ في دفاعه عن سيده راكعاً. تأثّر صلاح الدين لحاله، فأمر أن يعطى الفارس الفرنجي فرصة متابعة القتال راكباً، بإرسال حصان إليه، فكنت أنا ذلك الحصان! وقد قادني أحد فرساننا إليه، ونقل إلى رجالنا رغبة القائد العام، بأن لا يتقدّم لقتاله ، بعد أن يصبح راكباً، سوى فارس واحد.. وهكذا كان!

كان تأثّر الأدهم قد بلغ مداه وهو يستعيد وقائع تلك اللحظة المصيرية في حياته، وقد طال صمته، فهتف المهر الفتي بنبرة متوسّلة: أرجوك أن تتابع يا عمّاه.. ماذا كان مصير رينالد، وماذا كان مصير الفارس، وكيف أصبت أنت؟

أجاب الأدهم: أمّا عن رينالد، فقد أفلت بفضل شجاعة مرافقه، وبفضل جبنه هو بالطبع، فالقتلة الأشقياء هم جبناء في الأغلب، ويستأسدون على المدنيين العزّل فقط، كذلك أنقذته شهامة وإنسانية قائدنا. طبعاً سقط ذلك المرافق صريعاً من على ظهري، بينما كان رينالد قد نجا وصار داخل الحصن. أمّا أنا فقد أصابتني حربة رماها أحد جنود العدو من فوق بوابة الحصن!

***

عاد الصمت التام يخيّم، لكنّ الجميع كانوا يحدّقون بالأدهم، بينما هم يحاولون استيعاب تفاصيل تلك اللوحة المؤثّرة التي عرضها عليهم. وقد همّت الفرس البيضاء بتوجيه سؤال (حول حفلة العرس حتماً) ولاحظ الأدهم ذلك، لكنّ الأصهب سبقها بسؤاله: وكيف سارت الأمور بعد ذلك، وكيف انتهى حصار الكرك؟

أجاب الأدهم: تواصلت محاصرة الحصن، وقذفه بالأحجار والنيران، وبدأت عمليات ردم الخندق في بعض المواضع، وكانت عملية الردم..

قاطعته الفرس البيضاء بحياء: أستميحك عذراً يا سيدي.. ولكن، ماذا عن حفلة العرس، وعن إيزابيلا وهمفري؟

ضحك الأدهم وقال: نعم، معك حقّ في السؤال عن عرس إيزابيلا وهمفري.. هاأنت وقد حفظت اسميهما! الأهمّ في ما يتعلّق بالعرس هو تلك الوقائع الطريفة، اللطيفة، المتعلّقة به، والتي صدرت عن الجانبين المتحاربين.. هل تصدّقين أنّ الاحتفال استمرّ عدّة أيام بالرغم من الحصار والقصف؟ ولكنّ الفضل في ذلك يعود لصلاح الدين، حيث عمل بنفسه على ترتيب المعارك بحيث لا تتعارض مع استمرار حفلة العرس، فكانت أوامره بعدم قصف الجهة التي يقام فيها الحفل! وهل تصدقين أنّ صلاح الدين عومل من قبل الملكة ماريا كأنه واحد من المدعوين؟ هذا ما حدث بالفعل!

قدّر الأدهم أنّ القصة لا تزال طويلة، بينما الليل مضى معظمه، فاقترح أن يروي لهم تتمتها في الليلة التالية، فقبلوا على مضض!

(٨)

بعد غروب شمس اليوم التالي توجهت الخيول إلى الحظيرة متمهّلة، وبعد أن اكتمل الجمع، سأل الأدهم: هل تريدون مني مواصلة سرد أخبار حصار حصن الكرك؟

قالت الفرس البيضاء على الفور، وبنبرة قاطعة: بل نريد الاستماع أولاً إلى أخبار العرس.. ألم تقل البارحة أنّ الملكة ماريا تعاملت مع صلاح الدين كأنه واحد من المدعوين؟ ألم تقل أنّ العمليات الحربية ظلّت مستمرّة، وأنّ حفلة العرس ظلّت بدورها مستمرّة؟ أخبرنا كيف كان ذلك أرجوك؟

قال الأدهم: كان جنودنا قد أتمّوا ردم الخندق المحيط بالحصن بأكمله تقريباً. وكان صلاح الدين يتفقد سير تلك العملية الصعبة، التي ينجزها الرجال وهم يحتمون بالتروس الكبيرة من قذائف العدو. وكان رماتنا يغطون عمليات الردم بإشغال العدو وإرباكه، حيث يرمون بدورهم بالسهام والأحجار والنار. وأثناء التفقّد لاحظ صلاح الدين أنّ حفلة العرس تقام في البرج الغربي، وإذا به يأمر باستثناء تلك الجهة من الحصن، وذلك البرج تحديداً، من القصف، وأن يستمرّ الضغط على الجهات والأبراج

الأخرى..

تنهدت الفرس البيضاء بصوت مسموع، وقالت بنبرة واضحة التأثّر: طبعاً.. لا بدّ وأنّ صلاح الدين فكّر بتلك الطفلة المسكينة!

تساءل الأصهب مستغرباً: الطفلة المسكينة؟ عن أيّة طفلة تتحدّثين؟

هتفت الفرس البيضاء موضّحة: أتحدّث عن العروس الصغيرة.. الأميرة إيزابيلا..

وأضافت بينما الخيول تتضاحك: مهما يكن من أمر فإنها مجرّد طفلة في الحادية عشرة، سواء أكانت عدوة أم صديقة.. صلاح الدين لا يسمح بترويع فتاة في عمرها.. خاصة في ليلة زفافها!

عادت الخيول تضحك، وقال الأدهم: هذا ممكن.. قد تكون القضية عولجت على النحو الذي تذكرين.. على أيّة حال، أدرك المحاصرون مغزى الكفّ عن رمي البرج الغربي، ولا بدّ أنهم دهشوا وتأثّروا لتلك الالتفاتة التي تنمّ عن روح مسالمة، متحضّرة، غاية في التسامح والرقّة والعذوبة، بخاصة إذا تذكرنا أنّ في قاعة الاحتفال عدداً من قادة العدو الكبار، الخطرين، الذين يشكّلون صيداً ثميناً يصعب تجاهله.

سأل المهر الفتيّ، الأبلق، متحفّزاً ومنفعلاً: ولكن، يا عمّاه، هل يجوز التفريط في هكذا هدف لاعتبارات أخلاقية؟ هل يفعلون هم ذلك لو حدث تبادل المواقع؟

أجاب الأدهم وهو يتذكّر جرحه البليغ: أنا لم أعرف عنهم إلاّ الغدر، والاستعداد لارتكاب أبشع الجرائم.. النهب، والتدمير، والحرق، والإبادة الجماعية للعزّل.. لكنّ صلاح الدين يربأ بنفسه أن ينحدر إلى مستنقع الهمجية، ويربأ بقواته أن تصبح مثل قواتهم..

صاحت الفرس البيضاء مقاطعة، وقد نفد صبرها: لماذا لا تدعونا نسمع قصة العرس حتى نهايتها؟ أرجوك يا سيّدي.. أخبرنا.. كيف تعاملوا مع صلاح الدين كواحد من المدعوين؟

قال الأدهم: بعد أن فهم المحاصرون معنى توقّف القصف على البرج الغربي، ظهر فوق بوابة الحصن فارس أعطى إشارة تدلّ على أنّ لديه رسالة، فأعطي فرصة

إرسالها بوساطة السهم، وكانت الرسالة موجهة إلى صلاح الدين، وتتضمّن تعبيراً عن تأثّر الملكة ماريا كومنينا بصدد مبادرته الرقيقة، وتنقل إليه شكر وامتنان العروسين، وترجوه أن يأمر بإيقاف القتال عند البوابة، وأن يسمح بفتح الباب، ليخرج إليه بعض الرجال المكلفين بتسليمه هديّة من الملكة..

هتف المهر الأبلق: وهل استجاب صلاح الدين؟

أجاب الأدهم: نعم، توقف القتال وفتح الباب..

فصاح المهر: أليست تلك فرصة نادرة لاقتحام الحصن؟

ردّ الأدهم وهو يهزّ رأسه نفياً: صلاح الدين لا ينكث بالعهد يا بنيّ.. هو لا ينظر إلى الموقف من هذه الزاوية مهما كان الموقف مغرياً..

توجهت الفرس البيضاء إلى المهر الأبلق مؤنبة، وقالت: كفى.. أريد أن أعرف، قبل أيّ أمر آخر، ماذا أرسلت الملكة ماريا لصلاح الدين، ثمّ بعد ذلك تحدّثوا في ماتشاؤون!

قال الأدهم: معك كلّ الحقّ.. خرج من الحصن رتل من الخدم يحملون عدداً من الصحاف والأوعية الكبيرة، مملوءة بأصناف الطعام. لقد أرادت الملكة أن يشاركهم صلاح الدين في وليمة الزفاف وكأنه أحد المدعوين!



فراغات

(المكان والزمان : سورية – مطلع ستينيات القرن العشرين)

لم يعد عبد الجواد يطيق جلوساً ولا وقوفاً. لقد جلس ووقف، وجلس ووقف، مرّات كثيرة، حتى أنه، في المرّة الأخيرة، نهض واقفاً وقد توهّم أنه يفعل العكس! وهاهو يحرّك رأسه يمنة ويسرة، كأنما يبدي أسفاً شديداً. وهاهو يطوّح بذراعيه، كأنما يعترض بعنف. وهاهو يحدّق في الركن المقابل، كأنما ينصت باحترام! غير أن ذلك كلّه كان بلا دافع، ولا هدف، ولا معنى. فقد اختلطت عليه الأمور اختلاطاً كبيراً، لم يتعرّض لمثله من قبل أبداً، وغدا رأسه فراغاً، وحركاته، وسكناته، وتوضعاته، فراغات كلّها، فهو مثل ريشة تعابثها الرياح!

فجأة، وقع نظر عبد الجواد على زوجته منتصبة قرب الباب، تراقبه محملقة متوتّرة، فأحسّ كما لو أنه ضبط في وضعيّة مشينة! استشاط غضباً، وتلفّت حوله بسرعة، كما لو أنّه يريد التقاط أيّ شيء يرميها به. لكنّ الأمر اقتصر على ذراع ممدودة في اتجاهها إلى أقصى حدّ، وقد تشنّجت أصابع الكفّ المفتوحة على سعتها. هو ما كان ليقدم أبداً على أي فعل يؤذيها. إنها مجرّد حركات، وانفعالات لا إراديّة، عاجزة عن التّحوّل إلى أيّ فعل، مثل جلوسه ونهوضه المتكرّر مرّات لا تحصى، من دون مبرّر ولا غاية. كانت مجرّد حركة إضافيّة، من جملة حركات فارغة. أمّا المرأة القلقة، التي تابعت من دون وجل حركاته الأخيرة، فقد تراجعت بهدوء ووقار خطوتين إلى الوراء، نحو الباب، متقهقرة تقهقراً أنثويّاً، صامتاً وعاقلاً ومؤثّراً إلى درجة الإيلام. وفي الخطوة التراجعية الثالثة، كانت قد توارت دون أن تنبس بحرف، ودون أن تظهر رغبة في قول أي شيء!

بقي عبد الجواد للحظة في الوضعية التي كان عليها قبل انسحاب زوجته: ذراعه ممدودة بلا هدف، وعنقه ملويّة بلا سبب، يحملق في اللاشيء، و يمضغ المرارة بفم فارغ. لكنه سرعان ما استعاد مشهد انسحابها المؤثر مجسّماً، ونسي كلّ أمر آخر. هو لم يؤذها، بل لم يخدش مشاعرها، لا بقول ولا بفعل، منذ تزوّجا قبل ثلاث سنوات، وهاهو هذا المشهد يتكرّر للمرّة الثالثة خلال الشهر الأخير، فيبدو كأنما هو يهمّ بإيذائها، وها هي تنسحب بالطريقة نفسها متوارية، للمرّة الثالثة، صامتة هادئة وقور، مخلّفة في قلبه وخزة لا يطيق تحمّلها!

لكن، لسوء الحظ، وفي اللحظة التي تلت تواري زوجته، برز طفله الوحيد أمامه كأنما انشقّت عنه الأرض، وكأنما جاء من فراغ. كان يترنّح بسنتي عمره الاثنتين، متوجّهاً نحوه بنصفه الأسفل العاري، وقدميه الحافيتين، وبنصفه الأعلى، المحشور في قميص عتيق، بلا صوف ولا قطن ولا ألوان! فلما أصبح الطفل على بعد خطوة منه، انفجر في البكاء، وظاهر كفّه يغطّي إحدى عينيه، ثم تقدّم من والده وقد فاضت دموعه، واشتدّ عويله، ومدّ يده محاولاً الإمساك بسرواله، وإذا بعبد الجواد، ويا للغرابة، يطبق كفّه اليسرى على كتف طفله بإحكام، ويوجّهه بحركة قويّة نحو الباب الذي دخل منه، وقبل أن يدفعه للخروج من حيث أتى، يصفعه بكفّه اليمنى على مؤخّرته العارية، صفعة واحدة أحدثت صوتاً قوياً مفاجئاً، كما لو أنّه صفق بقوّة إحدى كفّيه بالأخرى، مع أنّها كانت صفعة خفيفة في الحقيقة، خلّبية فارغة! هي كانت صوتاً، بلا فعل حقيقي، أي غير مؤلمة. ولو أنها حدثت في ظرف آخر، لكانت مجرّد ملاعبة تضحك الطفل وأمّه وأبيه. غير أنّ الطفل الباكي، الذي أخذ على حين غرّة، روّعه دويّ الصفعة، وإن هي لم تؤلمه، فارتعش بشدّة، وأسرع مترنّحاً، مغادراً باستقامة، وعويله يتضاعف!

ما كاد الطفل يختفي حتّى توقّف عويله. وما كاد عويله يتوقّف حتّى برزت أمّه عند الباب. كان عبد الجواد يشعر الآن بالحرج، ويعاني من الحيرة، فهو متأكّد أنّه لم يؤلم طفله. وقد راح يختلس النظر إلى زوجته، التي بدت له في وقفتها أعلى قامةً، وأطول عنقاً، وأكثر جاذبية، وألصق بقلبه أكثر من أي وقت مضى. كانت مستنفرة، متوثّبة، ومستسلمة في الوقت نفسه. مثل مهاة يتعرّض صغيرها لخطر داهم لا قبل لها به، ولا

تملك إزاءه غير الاستنفار المتوثّب المستسلم. وكانت شفتاها منفرجتان قليلاً، كأنما هي تريد أن تقول شيئاً، ولا تجد شيئاً تقوله!

اختلج قلب عبد الجواد متشنّجاً، حتى حسبه سينفطر، بينما هو يختلس النظر إلى عينيها تبرقان، وإلى صدرها يرتفع وينخفض بسرعة ملفتة، فخطر له فجأة أن الغرفة البائسة، شبه الخاوية وشبه العارية، غدت بحضورها مكسوّة وغنيّة. نجح أخيراً في أخذ نفس عميق، وفي ملء عينيه من بهاء طلعتها، فانتشى كأنما هو عبّ كأساً مترعة معتّقة، أمّا هي، فقد كانت لا تزال مستنفرة، متوثّبة، ومستسلمة. لبؤة ومهاة في آن واحد. كاد يهرع إليها، ويحتضنها، ويبكي على كتفها، لكنّه اكتفى بمشروع ابتسامة، وتمتم بنبرة طافحة بالحبّ: « لماذا يتجوّل الولد عارياً حافياً يا سميحة؟»

واصلت التّحديق في عينيه، صامتة صمتاً ناطقاً، فلم يقو على الاستمرار في مواجهتها، وتحوّل بنظره إلى شرخ في جدار الغرفة. تنهّدت، واسترخت قليلاً بعد أن سمعته يلفظ اسمها. بدا ذلك لها كافياً لطيّ صفحة كاملة. همست، وهي تعرف أنه يعرف، إنما فقط لإشعاره بتجاوزها لما حدث: «سرواله مغسول، وحذاؤه..»! توقّفت، ثمّ أضافت: «سوف يجفّ سرواله بعد قليل»!

اربدّ وجهه، وتوجّه إلى علبة تبغه البلاستيكية، النّبيذية اللون، المرميّة فوق البساط الكالح. انحنى ببطء، وتناول العلبة، ورفع غطاءها، ونظر إلى داخلها. كانت العلبة فارغة، وهو كان يعرف أنها فارغة. أغلقها ورمى بها حيث كانت، ثمّ تهالك إلى جانبها. تمتمت المرأة: «لا تحزن، فلا بدّ أن يأتي الفرج»!

تشاغل بالنظر إلى العلبة الفارغة وقد أرهقه احتياجه للتبغ. بطالة، وإفلاس، وأسرة، ومن دون تبغ؟ كيف لا ينهكه التوتّر، ويدفعه إلى تصرّفات خرقاء، وإلى ارتكاب الحماقات والأخطاء؟ تخيّل قلقاً، لو أنّه أقدم قبل قليل على إيذائها، بالقول أم بالفعل. فكّر بحبّهما الرائع، وبزواجهما خلافاً لإرادة الأهل، وبحرمانهما نتيجة لذلك. فكّر بغربتهما الشّاقة الموحشة، وبمشاريعهما التي لا بدّ من تحقيقها، وتوقّف عند طفلهما مرتاعاً!

قال فجأة، كأنه يواصل حواراً لم ينقطع: «إنها مجرّد صفعة صغيرة..»! وطوّح

بذراعه ببطء مهوّناً من شأنها، وأضاف بعد ضحكة مفتعلة، مقتضبة: «جاء صوتها قويّاً، لا أدري كيف.. هو سفيه.. أنا متأكّد أنها لم تؤلمه.. هي صفعة فارغة»!

كانت لا تزال في وقفتها، تستمع إليه صامتة، وتفكّر واثقة أنّ عسرهما مجرّد سحابة قاتمة، عابرة. هي ظلّت تتصرّف دائماً على أنها تجتاز امتحاناً صعباً، خاضته بإرادتها، وتتحمّل أعباءه الثقيلة برغبتها، وهاهي تراقبه وهو يرسل يده إلى جيبه، ويخرجها بسبحة كهرمانية من الزّجاج الرخيص، من ذلك النّوع الذي يباع على الأرصفة، لكنّها سبحة جميلة، وتبدو كأنّما هي ثمينة. خيّل إليها، وهي تتابع أصابعه تداعب حبّات السبحة، أنه سيفقد آخر ما تبقّى له من رونق، ولياقة، من دون السبحة الكهرمانيّة، وعلبة التبغ البلاستيكية النبيذية. هو سوف يغدو من دونهما مثل طفله العاري، في هذه الغرفة الموحشة!

تحرّكت في اتجاه ركن، صفّت فيه بعناية علب صغيرة ملوّنة، وقالت: « سوف أعدّ لك كوباً من الشّاي، قد أجد بعضه ..»! ولم تكمل. أوقفها عن التقدّم نحو الركن بإشارة من يده، فاستجابت على الفور. كانت علبة الشاي فارغة، وهي وهو يعرفان أنها فارغة. ثمّ، ما قيمة الشاي من دون التّبغ؟

هبّ واقفاً وهو يقول: «لا وقت لديّ .. حان الموعد ..»! ألقى نظرة خاطفة، متأمّلة، على علبة التّبغ، ثمّ تناولها ودسّها في جيبه. من يدري؟ قد يعود من موعد العمل، الذي يبدو مبشّراً، والعلبة ليست فارغة!

توجّه نحو الباب، لكنّه تلكّأ قبل أن يغادر. رمقها مبتسماً برقّة جارحة، وقال: « ولد خبيث .. ممثّل حقيقي .. أنا متأكّد أنّها صفعة فارغة .. لم تكن مؤلمة .. أنا متأكّد»!

تنهّدت، ثمّ تمتمت وهي تشيّعه راضية: «لا تهتم .. المهم أن لا يكون موعدك فارغاً»!



أبناء النهر

(المكان والزمان : مدينة حماة أواسط القرن العشرين)

(١)

جاءت العطلة الصيفية، واقترن إغلاق المدارس لأبوابها مع هجوم مبكّر لفصل الصيف، فانتقل التلاميذ عموماً من مقاعد الدرس إلى ضفّة النهر.

كان النهر في تلك الفترة غزيراً، صاخباً نزقاً في بعض الأماكن، حيث التيارات والدوّامات المتعاكسة الاتجاهات. إنّه فعل الحرارة المبكّرة، والذوبان السريع للثلوج في أعالي الجبال البعيدة.

كانت دمدمات خرافية تصدر عن النهر في تلك الأمكنة التي يجتاز فيها السدود البسيطة، المبنية منذ أقدم العصور، والتي ترفع الماء بما يكفي لدوران النواعير والطواحين. وكان الزبد الأبيض، الشهيّ في عيون العطاش، يغطي مساحات أوسع من المعتاد، تحديداً عند مساقط المياه التي صنعتها السدود والحواجز والممرات الإجبارية.

على الضفتين، كانت أحراش الصفصاف الكثيفة، الداكنة الخضرة، ذات الأغصان اللدنة المتدلّية حتى الماء، تقاوم ببسالة، وبشيء من الجزع،اختراق النهر لصفوفها بحزم وبلا هوادة، فتصدر عنها أصوات هسيس وحفيف تجمع بين الشجاعة والخوف، وبين القوة والضعف. أمّا النواعير، التي يبلغ ارتفاع أكبرها أكثر من عشرة أمتار، فكان نواحها الأبدي قد اشتدّت وتيرته بسبب قوة تدفق الماء وارتفاع منسوبه. غير أنّ ذلك كلّه لم يطغ على صياح الأولاد وصخبهم، حيث أرتالهم تتقاطر إلى النهر جماعات جماعات بلا انقطاع.

كانت رؤوس الأولاد منتشرة على مساحة واسعة من صفحة المياه المضطربة المتلاطمة. وكان منظر تلك الرؤوس مثيراً وهي تطفو مضطربة مع اضطراب المياه، أمّا أجسامهم فكانوا غير راغبين في تعريضها للشمس، حتى أنّ أعداداً منهم تسلّلت إلى أحراش الصفصاف، حيث الماء العميق والظلّ القاتم. ولكن، كلّما بدا أنه لم يعد ثمّة متسع، برهن النهر عن تمتّعه برحابة صدر لا نهاية لها. رحابة صدر أبوية، أو أمومية، فكأنما الأولاد أبناء النهر.

غير أنّ حنان الأمهات والآباء، وسعة صدورهم، لا تمنع القدر من اختطاف أحد الأولاد، وهكذا حال النهر، حيث يحدث مرّات عديدة، في كلّ صيف، أن يختفي أحد الرؤوس الطافية، وقد ينتشل حيّاً إذا ما انتبه إليه أحد، أو يكتشف غيابه الخاطف، الأبدي، بعد ساعات!

***

كان الوقت ضحىً عالياً. وكانت جموع الأولاد تواصل تدفقها، ومعظمهم يخلع ثيابه ويحملها تحت إبطه قبل أن يصل ضفة النهر بمسافة ليست قصيرة، وفور وصولهم الضفة يلقون بها أرضاً، ويندفعون إلى الماء وهم يتصايحون، ويتراشقون، ويغطسون، مخلّفين الضفة مزروعة بأكوام ثيابهم، مثل سوق غير نظامي لبيع الملبوسات المستعملة!

في ذلك المسرح النهري المدهش، وعلى القاعدة الحجرية الضيقة لإحدى قناطر المياه المرتفعة، كمن العيّار يراقب كلّ من على المسرح، مثل ابن آوى يراقب خمّاً مكتظّاً بالدجاج، وقد ركّز انتباهه على أكوام الثياب، وبخاصة ثياب الأولاد الذين يدلّ مظهرهم على اليسر إن لم يكن الغنى، فالعيّار (محمد العيّار) كان ولداً مشرّداً، ومشروعاً للصّ محترف!

(٢)

بينما العيّار يراقب ولداً لم ينزل إلى الماء، وبقي يحرس ثياب رفاقه، ويفكّر بالطريقة التي يبعده بها، ليسطو على محتويات الجيوب، باغته صوت ماجد، جاره في الحيّ،

يسأله: ماذا تفعل هنا يا عيّار؟ وبكلّ ما عرف عنه من سرعة بديهة، سحب فوراً من جيبه الواسع لفافة خبز، وأجاب كمن كان ينتظر هذا السؤال: جئت لأتناول فطوري هنا.. سندويشة لبنة .. الفطور ممتع هنا.. الناعورة وظلها وصوتها ورذاذها، ومنظر الأولاد يسبحون.. لا ينقصني سوى الشاي!

كان المكان الذي يجلس فيه العيّار مرتفعاً، ضيّقاً، فهو غير مريح إن لم يكن خطيراً، فابتسم ماجد مستغرباً ومرتاباً من جهة، ومعجباً بتصرفات العيّار الغريبة الشجاعة من جهة أخرى. قال العيّار مضيفاً بنبرة مرحة: يا ماجد.. لو نزلت لآكل سندويشتي تحت فسوف يتخطفها الأولاد.. كلّ واحد لقمة.. هل تريد مشاركتي؟ ومدّ يده باللفافة، فاعتذر ماجد بأنّه تناول إفطاره قبل قليل في البيت، وأنّه في طريقه إلى معمل بلاط، صاحبه صديق أبيه، وأنه سوف يتعرّف على المكان، ويبدأ العمل طيلة عطلة الصيف في هذا المعمل، وقال أنّه اختار سلوك هذا الطريق المختصر (من خلف النواعير) لأنّه يوصله إلى المعمل في ربع ساعة، أمّا الطريق النظامي فهو طويل يستهلك أكثر من ساعة..الخ!

قال العيّار: العمل في معمل بلاط صعب.. جرّبته يوماً واحداً منذ مدّة فاهترأت يداي من الكلس، حتى بان اللحم الحيّ.. وعند غروب الشمس تقاضيت أجرتي نصف ليرة!.. ولم أعد أبداً إلى ذلك المكان.. إنّه عمل للكبار.

قال ماجد: أنا الآن كبير.. أتممت الحادية عشرة ودخلت الثانية عشرة..

قاطعه العيّار ساخراً: أنا أكبر منك بسنتين.. ومع ذلك لا أقوى على العمل في معمل بلاط.. ثمّ إنك ذاهب الآن، في الضحى، لتتعرف على المكان وتتعرّف على صاحب المعمل.. أمّا في الغد فعليك أن تكون هناك في السادسة صباحاً.. أنا أعرف، فقد عملت معهم.. والمعمل بعيد.. في آخر الدنيا.. خارج البلد.. عليك أن تستيقظ في الخامسة على الأقلّ كي تصل في وقت الدوام..

قاطعه ماجد متسلّحاً بالعناد كي لا يضعف أمام منطقه المقنع: سوف أستيقظ في الخامسة، وأذهب دائماً من هذا الطريق المختصر.. اجتياز النهر بهذه الطريقة يوفّر عليّ ساعة من المشي.

قال العيّار ساخراً: تجتاز النهر، من خلف النواعير، في الخامسة صباحاً؟ حيث العتمة لا تزال، ولا يوجد أحد؟ ما هذا؟ مدرسة في الشتاء، ومعمل بلاط في الصيف؟ مسكين! الحمد لله أنا مرتاح من كلّ هذا.. لا مدرسة ولا معمل.. اجلس لأحدّثك بما وقع لي البارحة.. كيف حصلت بسهولة على مصروفي وطعامي.. إنها حكاية صغيرة.. دقيقة واحدة فقط ثمّ اذهب.. وسأحدّثك عن أمّي المجنونة، ماذا فعلت..

قال ماجد: دعني أمرّ.. تأخّرت كثيراً.. ألا تذهب معي فأتعرّف على المكان ونعود معاً؟ لن يأخذ المشوار كلّه أكثر من ساعة.

قال العيّار: لا، لن أذهب معك.. أنت لن تعود حتى المغرب.. سيشغلونك بعمل ما.. أنا أعرفهم.

قال ماجد وهو يمضي في طريقه، خلف الناعورة: بل سأعود في العصر، على الأغلب، وربّما قبل ذلك بكثير.

(٣)

ما أن اختفى ماجد خلف أعمدة القناطر الممتدّة إلى الضفة الأخرى من النهر حتى عاد العيّار إلى وضعية الكمون والرصد التي كان عليها. ولم يطل انتظاره هذه المرّة، فقد ركّز نظره على ثياب بعينها، قدّر أنّ جيوبها تحتوي على ما يستحقّ المخاطرة.

كانت الثياب مكوّمة على مقربة من بداية الدرب الزراعي الذي يقود بسرعة، خلال دقائق، إلى حيّ العيّار . لم تكن الثياب محروسة، وصاحبها المشغول بالعوم لن تفيده مراقبة ثيابه عندما يختطفها العيّار، ولن يستطيع اللحاق به وإمساكه، لأن العيّار سيختفي قبل أن يغادر الماء.. وهل يجرؤ على الركض خلفه عارياً إلى حيث البيوت والناس؟

بسرعة ابن آوى ورشاقته انقضّ العيّار على الثياب، فحملها وطار بها بعيداً دون أن يعترضه أحد. كانت العملية غاية في السهولة إلى درجة جعلت العيّار يكفّ عن الجري، ويتابع ما تبقى من طريقه بسرعة عادية، بل راح يقلّب تلك الثياب، فلاحظ أنها تشبه كثيراً ما كان يرتديه ابن جيرانهم ماجد. حدّث نفسه مبتسماً بمكر: لو التقى

صاحبها بماجد فسوف يتهمه بأنه يرتدي ثيابه!

فتّش العيّار الجيوب، فعثر على ليرتين اثنتين معدنيتين! لقد كان مبلغاً كبيراً يعادل أجر يومين من العمل الشاق في معمل البلاط! وعلى الفور بدأ يفكّر في ما سيشتريه: علبة تبغ (بافرا) فاخرة وعلبة كبريت .. بسبعين قرشاً .. هذا أولاً .. ثمّ نصف كيلو كباب مشوي بمائة وخمسة وعشرين قرشاً .. تبقى خمسة قروش.. أوقية هريسة (نمّورة).. سوف تفرح الوالدة المجنونة كثيراً!

***

كانت أمّ العيّار جالسة في صحن الدار، تدمدم بكلام غير مفهوم، حين ألقى ابنها الثياب المسروقة في حجرها، وهمّ بالخروج على الفور. سألته ونظرها لا يستقر على شيء بعينه: هل اشتريت لي هذه الثياب؟ قهقه، وقال لها وهو يهمّ بالخروج: يا مجنونة.. إنها ثياب صبي!

ردّدت المرأة: صبيّ؟.. ومن هو هذا الصبيّ؟

قال العيّار، وقد واتاه الجواب هكذا، دون هدف أو دافع، طالما أنه يتحدّث إلى مجنونة: إنها ثياب ابن جيراننا ماجد.. أنظري إليها.. ألم تشاهديها عليه؟

عادت المرأة تسأل: وأين ماجد؟

هاهنا وجم العيّار للحظة. كان متلهّفاً للخروج، وقد استغرب أسئلة المرأة التي لاتخلو من تركيز، على غير عادتها، فأجاب، دون أن يدري لماذا: غرق ماجد في النهر.. إيّاك أن تخبري أحداً .. خبّئي الثياب.. إيّاك أن تخبري أهله، فنحن جيران.. سيعرفون من غيرنا ..

كان يعبث، ويختلق حكاية غرق ماجد غير هيّاب، لأنّ ماجد سيعود إلى أهله بعد قليل، أمّا المرأة المريضة فلم يظهر على وجهها أيّ ردّ فعل، ولم يبد عليها أنها فهمت شيئاً .. كلام في الهواء.. فكّر العيّار أنّه سيبيع الثياب غداً في سوق البالة! قال مخاطباً أمه وهو يتجه نحو باب الدار: أنا ذاهب لأشتري لك الكباب والهريسة.. سأعود بعد قليل. فلم يبد على المرأة أنها تتابع كلامه، أو أنها فهمت شيئاً مما قاله!

(٤)

في طريقه إلى الجزّار مرّ العيّار بحانوت البقّال، وطلب علبة تبغ من نوع بافرا مع علبة كبريت، ومدّ يده إلى البقّال بليرة كاملة. تجاهل البقّال اليد الممدودة، وتظاهر بالانشغال في نقل بعض الحاجيات إلى خارج الدكان. حدّث نفسه: يجب أن أمسك به، هذا الشيطان، إنّه يبدو اليوم وديعاً لا أدري لماذا! وبعد أن صار على مقربة كافية، وثب بسرعة، وقبض على معصم العيّار، وهو يزمجر: وقعت في يدي.. لي في ذمتك ليرة منذ أشهر، وعليك تسديدها في الحال! تناول دفتر الديون بيده اليسرى، وفتحه دون أن يطلق العيّار: ها هو حسابك.. علبة تبغ من نوع (مرجان) بعشرين قرشاً.. سكّر وشاي بخمسة وعشرين قرشاً.. زيت حلو.. نمّورة.. المجموع ليرة سورية كاملة، وعليك أن تسدّدها الآن.

قال العيّار بازدراء أدهش البقّال: طيّب.. إذا لم يكن تأجيل التسديد ممكناً فخذ.. هذه هي الليرة.. من يريد أن يأكل حقّك؟

التقط البقّال الليرة المعدنية غير مصدّق، وبعد أن تفحّصها أطلق معصمه، ورمى الليرة في الصندوق. أمّا العيّار فقد أخرج الليرة الثانية من جيبه، ودحرجها على الرخامة العريضة في اتجاه البقّال، وقال متصنّعاً وضعية الشريف الذي مسّت كرامته: خذ.. هات علبة بافرا وعلبة كبريت!

التقط البقّال الليرة، وتفحّصها بدورها قبل أن يلقيها في الصندوق، وناوله طلبه، وأعاد إليه ثلاثين قرشاً وهو يقول: هكذا سيّد محمّد تكون المعاملة.. أهلاً وسهلاً، وعلى حسابك دائماً!

ابتعد العيّار عدّة خطوات قبل أن يفتح علبة التبغ، ويخرج سيجارة يرفعها أمام عينيه ويتأملها بإعجاب، ثم يشعلها. قال لنفسه مغالباً خيبته بينما هو ينفث الدخان تباعاً: لا بدّ من شراء الكباب اليوم.. سوف أشتري اللحم والهريسة للمجنونة اليوم كما وعدتها.. هي جائعة ولا تعرف، ولا تطلب الطعام.. سأعود إلى النهر الآن! ومضى مسرعاً عبر البساتين في اتجاه النهر لا يلوي على شيء!

***

أمّا عن أمّه المجنونة، فمن عجب أنّ عقلها المخرّب المشتت قد تجمّع في تلك الساعة، وصار قادراً على تحقيق بعض التركيز. وقد ظلّت تحدّث نفسها عن ماجد الغريق، المسكين، وتتأسّى لحال أمه، وتقلّب الثياب في حجرها على أنها ثيابه. ومن عجب أيضاً أنها استوعبت نصيحة ابنها، وفهمت كيف أنه ليس من مصلحتها ولامن مصلحة ابنها أن يعرف أهل الغريق الخبر عن طريقها. لكنها، ويا للعجب أيضاً، انطلقت حاملة الثياب إلى جيران آخرين، وأبلغتهم بالنبأ المزعوم، وعرضت عليهم الثياب فتيقّنوا، ثمّ أوصتهم أن لا ينقلوا الخبر إلى أهل الغريق عن لسانها. قالت لهم: أنا ذكية.. وابني ذكيّ مثلي.. نحن نعرف أنّ الأذكياء لا يرتكبون مثل هذا الخطأ! غير أنها رفضت رفضاً قاطعاً تسليم الثياب لأيّ كان، وعادت بها إلى بيتها، وأخفتها في مكان ما، بحيث لم يعثر عليها أحد أبداً بعد إخفائها!

على أيّة حال، وصل الخبر إلى أصحابه بالطبع، بسرعة البرق، فاستقبله أهل ماجد بما تستقبل به عادة مثل هذه الأخبار المفجعة، بالبكاء والعويل، والصراخ والتراكض في اتجاه النهر.

(٥)

وصل العيّار إلى النهر قبل شيوع الخبر المزعوم عن غرق ماجد، الذي بثّته أمّه المريضة، وفي لحظة نادرة وجد نفسه بغتة محاطاً بصاحب الثياب وبأصدقائه الأشدّاء المسلّحين بالعصيّ، وأحدهم يصرخ: إنّه هو السارق، رأيته بعيني! لكنّ العيّار، وهو ابن النهر الأول في الحيّ، نجح في الانزلاق خارج الحصار المحكم، وأسرع يتسلّق القناطر بخفّة ورشاقة نسناس، ثم مضى يثب وثباً خلف النواعير التي لا تكفّ عن الأنين، قافزاً فوق الممرات الإجبارية للمياه المحتجزة التي تصطرع بجلبة مخيفة، حتى توارى عن الأنظار!

كيف توارى العيّار، وأين؟ تلك كانت من مآثره التي تصعب معرفتها! لقد تلاشى تماماً في مكان محدد، محاصر من جميع الجهات، وتحت سمع وبصر مجموعة من الفتيان الأشدّاء الذين يضاهونه في معرفة خفايا النهر وتوابعه، ولم تفلح عمليات التفتيش الدقيق بين القناطر، وفي فجوات السدود والجدران، وفي أحراش الصفصاف،

في الوقوع على أيّ أثر له!

***

في تلك اللحظة بدأت تصل إلى النهر تباعاً طلائع الغطاسين، المحترفين والمتطوعين، الذين استنجد بهم أهل ماجد لمساعدتهم في العثور على الجثة، وبدأت عمليات الغطس والغوص والبحث الشاق الثقيل عن جثة الصبي الغريق.

لكنّ جموع الأولاد واصلت العوم واللعب والمرح، وتسلّق القناطر، والتعلّق بالنواعير والدوران معها أو القفز من أعلاها، غير آبهة لحادث الغرق، ولا للغطاسين، ولا لأهل الغريق ماجد الذين أرهقتهم الفاجعة، وقد استمرّت أرتال جديدة تتقاطر وأرتال تغادر، فكأنك أمام نهر الغانج الهندي المقدس وقد امتلأ بالحجيج!

كان القادمون يسألون: ما الأمر؟ فيجيبهم أحد المغادرين: غريق! فلا يتريثون ولو لحظة قبل خلع ملابسهم والنزول في الماء. ولم يكن الجميع يسألون عن اسم الغريق، لأنّ حوادث الغرق كانت تتكرّر كثيراً على مدار أيام الصيف!

كان أهل الغريق وأقاربهم، وأصدقاؤهم وجيرانهم، يتجمعون وقد ظهرت عليهم آثار الفاجعة في إطار تلك الدائرة الواسعة من المرح الصاخب. ولم يكن هذا التناقض مستغرباً، وهو عادة يستمرّ حتى لحظة العثور على جثة الغريق وانتشالها، حيث تسود حالة صمت وتوقف عامة قصيرة، تدوم إلى أن تسحب الجثة وتنقل بعيداً عن النهر، ثم يعود كلّ شيء إلى طبيعته!

واصل الغطاسون البحث عن جثة ماجد، من المخاضة التي تحول دون انجراف الجثة في العمق، وحتى سدود النواعير. طال الوقت، وضاعت الجهود، وظهر اليأس على بعض وجوه الغطاسين. أمّا أهل الغريق من الرجال، فقد صار همّهم العثور على الجثة ودفنها قبل حلول الظلام. إنّ فكرة أن تبيت الجثة في قاع النهر تغدو أفظع من قضية الموت في حدّ ذاتها!

(٦)

عند العصر بالضبط، وصل ماجد إلى النهر عائداً من جولته التي بدأها بمعمل

البلاط، حيث تعرّف على المعمل وعلى صاحبه، على أن يبدأ العمل في اليوم التالي باكراً، ثم مضى يتسكّع هنا وهناك طيلة الوقت، وعندما انتبه إلى تأخّره أسرع في العودة سالكاً طريق النهر المختصر كما في الصباح.

ما أن وضع ماجد قدمه على أول قاعدة القناطر، ليعبر النهر من خلف النواعير، حتى لاحظ عمليات الغطس الدائرة، فخمّن أنّ هناك غريقاً. سأل أقرب ولد إليه: ما الأمر؟ أجابه الولد قبل أن يقفز إلى الماء: غريق! إذن، فد صحّ تخمينه. غير أنّه لم يتوقف عند خبر الغريق، فقد كان يتوق لمقابلة العيّار، كي يبلّغه أنه سيباشر العمل صباح الغد، وسيواظب على سلوك طريق النهر المختصر.

كان صخب الصبيان هنا، تحت القناطر، لا يقلّ عن أيّة ناحية أخرى، وقد راح يفتّش بينهم عن العيّار ليواجهه بعودته عصراً كما قال له. لكنه كان يريد أيضاً الإسراع في الوصول إلى البيت، لأنّ الجوع بدأ يعضه بأنيابه عضّاً مؤلماً،عندما سمع صبياً يقول لمن حوله بصوت عال: غرق قبل الظهر ولم يعثروا عليه حتى الآن. وسمع آخر يقول: إذا بات في قاع النهر فسوف تلتهم الأسماك عينيه وشحمتي أذنيه، وجميع الأجزاء الطرية في جسمه!

ألقى ماجد نظرة على الغطاسين، الكهول في معظمهم، فلاحظ يأسهم. وأرسل بصره إلى الضفة الأخرى، التي تقوده إلى بيته، حيث هناك الجمع الذي يحيط بأهل الغريق، غير أنه، بسبب بعد المسافة، وبسبب الزحام والصخب، لم يميّز أيّ أحد من أهله. ثمّ انشغل عن جوعه، وعن العيّار، بالتفكير فيما سمعه عن احتمال بقاء الجثة في قاع النهر إلى الغد، فأقلقه ذلك، وقال لنفسه: أنا أعرف طريقة للعثور على الغريق!

(٧)

عاد أدراجه بسرعة إلى الضفة التي جاء منها، فأحضر رزمة من العشب الطويل الجاف، ورجع إلى منتصف الممر الحجري الذي يقطع النهر عرضاً، وجلس القرفصاء يراقب بانتباه تيارات الماء المتعاكسة. وسرعان ما اختار أحد تلك التيارات، وألقى فيه رزمة العشب اليابس، وراح يتابعها بنظره والتيار المائي يحملها بعيداً. حدّث نفسه:

حيث ترسو الرزمة أخيراً، وتستقرّ، يكون الغريق تحتها في الأعماق .. هذا ما قاله لي جدّي رحمه الله!

بالفعل، طفت قبضة العشب، وتهادت متسارعة ومتباطئة، يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً، وقد تمهلت في بعض الأماكن حتى كادت تتوقف، ثم عادت تسرع بعيداً وتكاد تمضي في مجرى النهر الأساسي العريض، حتى أنها كادت تغيب عن نظره أكثر من مرّة، لكنها سلكت أخيراً طريق العودة إلى حيث بدأت رحلتها، ممتطية تياراً معاكساً للمجرى العام، وصارت تتقدّم بتؤدة وهي ترتفع وتنخفض، لتتوقف تحت مجلس ماجد بالضبط، على مقربة من مسقط مياه قوي، وفي نقطة محدّدة تحيط بها بقعة واسعة من الزبد المائي المرتعش!

تساءل ماجد بكثير من التهيّب والرهبة: هل يمكن أن يكون الغريق هنا، تحتي، إلى جانب الجدار في العمق؟ أمّا الأغرب من ذلك فهو قراره أن يتأكّد من ذلك بنفسه لوحده! وبالفعل نهض على الفور، فخلع ثيابه وقفز دون تردّد إلى الماء، مرسلاً رأسه أولاً، كي يحصل على قوة اندفاع كبيرة توصله إلى قاع النهر بسرعة!

(٨)

وصل ماجد إلى قاع النهر، وربض ريثما أخذ اتجاه حائط السد المغمور بالماء، ثم اندفع نحو الحائط محافظاً على اتصال قدميه بالقاع، متلمّساً بيديه ما يصادفه من أشياء راسية أغلبها من مخلفات إصلاح الناعورة وتجديدها دورياً. وقد وصل الجدار، ووضع كفّه عليه، وهمّ بالخروج بسبب إحساسه بالحاجة إلى التنفس، لكنه رأى تفحصّ القاع قبل الخروج، فأرسل يده إلى الأسفل، يحركها اعتباطاً كالأعمى، وإذا بكفّه تقع على وجه الغريق!

أصابته قشعريرة، وشعر أنّ الهواء في رئتيه لم يعد كافياً، فضرب مشطي قدميه بالقاع ليندفع كالسهم إلى ما فوق سطح الماء. أخذ نفساً عميقاً، ثم تلفت حوله، فرأى أحد الغطاسين. صاح بأعلى صوته: الغريق هنا! ثمّ صعد الجدار، وارتدى ثيابه على عجل، وجلس على قاعدة القناطر وهو يشعر أنّ من حقّه الحضور مع الكبار لحظة

انتشال الجثة!

وصل أوّل الغطاسين إلى النقطة التي حدّدها ماجد، وكان واحداً من أصدقاء أسرته، فما أن وقع بصره عليه حتى بهت، وسأله: ألست أنت ماجد؟ ولكنّك أنت الغريق! قال ماجد مبتسماً ومرتبكاً: أنا؟ الغريق في القاع.. هنا.. إلى جانب الجدار.. وضعت كفّي على وجهه.

غطس الرجل تحت الماء، ثم خرج، وخاطب ماجد قائلاً: صحيح.. يوجد غريق.. لكننا كنّا نفتش عنك.. أنت الغريق! ووصل أهل ماجد إلى المكان وقد شاع خبر العثور على الغريق، فبهتوا عندما رأوا ابنهم حيّاً، لكنهم لم ينبسوا بحرف واحد، وأرسلوا من يخبر النساء في البيت بالخبر الطيب.

قال الغطاس المتطوع: سوف أنتشل الجثة فاستعدوا لتناولها مني. وغاب تحت سطح الماء قليلاً، ثم خرج يسحب الجثة من ذراعها، فتلقاها الرجال، وانتشلوها من الماء، ومدّدوها على قاعدة القنطرة الضيقة، على مقربة من ماجد الذي وقف يحدّق فيها كالمصعوق.

كان الغريق مرتدياً كامل ثيابه. ومن فتحة جيبه ظهر طرف علبة تبغ، من نوع بافرا!



المعسكر

(المكان والزمان: سورية – أواخر ستينيات القرن العشرين)

وصلت إلى حيث تحلّق عدد من الرجال حول أعلاهم رتبة. كانوا ينصتون إلى مايقوله بتركيز شديد، وأذرعهم معقودة خلف ظهورهم. كانوا وقوفاً في العراء، بلباس الميدان، وقد انحنى معظمهم قليلاً إلى الأمام، تدليلاً على الاهتمام الشديد بما يقال، وتدليلاً على الاحترام لقائله أيضاً.

أفسحوا لي مكاناً في حلقتهم، بحركة سريعة لا تلحظ، ومن دون أن يرفعوا أنظارهم عن المتحدّث، الذي واصل كأنما هو لم يلحظ حضوري. كانوا يتداولون حول قضية تصفية المعسكر، التي باتت كأنما هي أمر محسوم، مع أنّ قراراً رسمياً بذلك لم يتّخذ بعد، بل إنهم، في الحقيقة، كانوا يتلقّون التعليمات، ويتظاهرون أنهم يتداولون. أي أنهم كانوا يتظاهرون بالمشاركة في صنع القرار!

كان بإمكاني حضور الاجتماع من أوّله، أو في نهايته وهو ما حدث، أو عدم حضوره نهائياً، فالاجتماعات منذ فترة صارت شكلية، ولا علاقة لها ولا تأثير على مراكز صنع القرارات خارج الأصول. وفي معرض التظاهر لا أكثر، انبرى أحد أفراد الحلقة يقول: «المعسكر فقد ضرورته .. هذه حقيقة»! قال آخر: « ولكن، من المستحيل إنجاز عملية تصفيته دفعة واحدة»! وقال ثالث: « سوف تستغرق العملية زمناً، وجهوداً غير بسيطة»!

أومأ كبيرهم برأسه عدّة إيماءات دليل الموافقة، والتفت إليّ يخاطبني، كأنني كنت حاضرا «مداولاتهم» منذ بدايتها: «أنت تفهم .. عملية صعبة .. مثل عملية اقتلاع الأشجار التي كفّت عن العطاء .. صعبة ومحزنة.. يتوجّب اقتلاعها شجرة، فشجرة،

فشجرة .. أليس كذلك؟». لم تظهر على وجهه أية دلالة أسف، ولا أية دلالة حزن، كما زعم، بل بدا معجباً بما نطق به من أحكام، وتشبيهات، ومرتاحاً لتقديراته «العقلانية الواقعية»!

من جهتي، كنت قد اعتدت أساليب «العقلانيين الواقعيين». هم يقرنون دائماً تقديراتهم الحكيمة بتعبيرات مناسبة، يرسمونها على وجوههم. تعبيرات باتّة، هي خليط من التحذير، والاستصغار. تقول لك من دون كلام : « لا تجادل أيها الجاهل»! ومع أنني التزمت الصمت، فقد ظلّ متّجهاً إليّ، ينتظر ما يمكن أن أقوله، فلما أبطأت، خاطبني مستدرجاً إياي للحديث: «أليس كذلك؟ لا بدّ من غرس جديد مختلف، فقد انتهى زمن المعسكرات»!

لم أكن راغباً في قول أي شيء، لا جادّاً ولا هازلاً، لا مجاملاً ولا صريحاً، لقناعتي أن لا جدوى. وهكذا سادت الموقف لحظة ثقيلة من الصمت، والانتظار، والتململ. كنت كمن اصطدمت قصبة ساقه بحدّ المنضدة، فهمّ بركل المنضدة، لشدّة ألمه، واضطراب ذهنه. وقد أنقذ الموقف، وأنهى الاجتماع، قدوم سرب الحوّامات المعادية، يقوم بدوريته المسائية المعتادة، مقبلاً من الجنوب، فلما اقترب محلّقاً على ارتفاع منخفض، غطّى ضجيجه على كلّ كلام!

كان سرباً من ثلاث حوّامات، تشبه أشكالها نوعاً من حشرات المستنقعات. لقد اعتدنا مثل هذه الدوريات الروتينية، يقوم بها العدو منذ فترة. منذ توقفت العمليات الحربية. وقد تساءلت في سرّي متهكّماً وأنا أتابعها : «ترى هل طاقمها هو ذاته؟ هل اعتادوا رؤيتنا، وهل يعرفون ما يدور بيننا؟ وماذا لو انخفضوا أكثر، ولوّحوا لنا بأيديهم؟ هل نبادلهم تحيتهم بأحسن منها؟ هل ندعوهم لاحتساء القهوة؟!

تجاوزتنا الحوّامات مبتعدة شمالاً، وابتعدت بدوري عن جماعتي إلى خلاء قصيّ، وعندما صرت وحيداً، لا أرى أحداً في جميع الجهات، انفجرت العاصفة المحتبسة في صدري، بكاءً ونشيجاً واختلاجاً. ومن خلف دموعي تابعت الحوّامات البعيدة، تدور دورتها الواسعة، تمهيداً لسلوك طريق العودة إلى قاعدتها، خلف خطّ وقف إطلاق النار. وقد ظللت أتابعها حتى تحوّلت إلى ثلاث نقاط سوداء صامتة!

جفّفت دموعي بطرف قميصي، وأصغيت إلى الصمت، بينما بصري المشوّش يجول بين الكثبان المحيطة، بأحجامها المختلفة . بدت لي الصحراء، بتشكيلاتها الكثبانية، غير آبهة، ومنصرفة بكل جلالها إلى إنجاز واجباتها الأزلية، غير المرئية. أحسست أنّ كل نبضة خفيّة من نبضاتها تنجز مهمة خفيّة محدّدة. وإلا فما هذا التدرّج المتحرّك، على الدوام، للألوان؟ وما هذا التبدّل، المتكرّر على الدوام، للأشكال العملاقة، التي تملأ المشهد الهائل، الممتد حتى الأفق؟

شغلتني تماماً تلك الألوان، وتلك الأشكال الغريبة، التي تجسّد ما لا يحصى من الكائنات. هاهي حشود بشرية ضخمة، لا تدلّ أزياؤها على عصر معين: مضارب خيام، وقطعان، وقوافل، وغابات! وهاهي مدن حديثة، وأرتال ميكانيكية، وغابات أيضاً! ثم راحت التشكيلات الكثبانية تأخذ أشكال أجساد بشريّة، مستلقية، منتشرة على مدى النظر، بوضعيات مختلفة، مثل موديلات في مرسم. دقّقت في مكوّنات واحد منها، فميّزت كاحل القدم، بل ميّزت بعض أصابع القدم، وإن بوضوح أقلّ، ثم تعذّرت عليّ رؤية الساق، فالورك، فالخصر. غير أن رؤية الجسد بمجمله، مستلقياً على مساحة شاسعة، تكاد تتصل بالأفق، كانت متاحة. وهاهو تجسيد كثباني، رمليّ، للملكة الشجاعة زنوبيا. لقد حاولت عبثاً الإمساك بتفاصيله. تخيّلت معسكرها التدمري، وأردت عقد مقارنة بينه وبين معسكرنا . أين أخطأت زنوبيا؟ أين أخطأنا نحن؟ أوشكت أن أضع إصبعي على الخلل، لكنه كان أملساً، لزجاً، انزلق من قبضتي مثل سمكة في الماء. لماذا خسرت زنوبيا أمام القياصرة القدامى؟ ولماذا نخسر نحن أمام القياصرة الجدد؟ لماذا ابتلعت الرمال تدمر؟ وهل ستبتلعنا بدورنا؟ هل هي الوثنية؟ هل هو الافتقار إلى عقيدة؟ عند هذا الحدّ، خطر لي أنهم قد يستطيعون تقويض معسكرنا، وتصفيته، لكنه سوف ينهض مرّة أخرى، وأخرى، وأخرى، ثم لن يقوّض أبداً بعد تلافي النواقص الفادحة، عبر التكرار، والتكرار، والتكرار!

كان الليل قد استكمل إسدال ستائره القاتمة، فهو ليل مثل موج البحر، كما يقول امرؤ القيس. وقد انطلقت الأشباح، تملأ بضجيجها الصامت ليلة طويلة خرساء. أما المعسكر، فبدا هاجعاً كما لو أنه قابل فعلاً للتقويض والتصفية. وعلى الرغم من

استحالة التمييز أحياناً، فقد ظللت، في طريق عودتي إلى المعسكر، أميّز بوضوح. سلكت الدروب بسهولة إلى خيمتي، ودخلتها دون أن أصطدم أو أتعثّر بأيّ شيء، لابالأشباح، ولا بالأشياء. كأنني أتحرّك في عزّ الظهيرة!

في الخيمة المظلمة، مددت يدي إلى علبة الثقاب، حيث أضعها عادة بين أشياء أخرى، فالتقطتها مباشرة، كأنني أراها. أحرقت ثلاثة عيدان قبل أن أوقد الشمعة، الموضوعة في مكانها المحدّد: في مهبّ الرّيح! انطفأت قبل أن أدير ظهري لها، فلم آبه أنها انطفأت أو لم تنطفئ، ولم أعاود إشعالها، لكني كنت مطمئنّاً ومتأكّداً أنها في موضعها المحدّد، في مهبّ الريح!

ثمّ تحوّلت إلى حقيبتي الكبيرة، فركعت أمامها، وفتحتها بسهولة ويسر، وأخرجت منها ثياباً داخلية نظيفة، وقطعة صابون مطيّبة، وفرشاة ومعجون أسنان، ووضعت هذه الأشياء جميعها في كيس بلاستيكي، وأضفت إليها منشفة كبيرة، مزيّنة بأشكال جميلة نافرة، وعدت إلى الحقيبة، وأخرجت منها، متأنيا،ً بذلة مناسبة لحضور حفلة في أرقى الفنادق. وضعت البذلة على مقربة، ووضعت إلى جانبها حذاءً أنيقاً، لامعاً، ثم انتقيت بعناية ربطة عنق من بين أربع تأملتها تباعاً، وعلّقت ربطة العنق فوق البذلة، وحملت الكيس البلاستيكي والمنشفة وانطلقت إلى الحمّام.

وصلت إلى الحمّام دون أن أتعثّر بالأشياء، أو أصطدم بالأشباح. كانت الحمّام مجرّد صهريج مقطور، محجوب بسواتر معدنيّة رقيقة. نظّفت أسناني جيّداً، خلال ثوان، ثم فتحت الصنبور ليتدفق الماء على رأسي وجسمي كله، لمدّة دقيقتين أو أكثر قليلاً. لم أستعمل قطعة الصابون، ولا المنشفة الكبيرة المعرّقة، ولا أيّ شيء آخر من محتويات الكيس البلاستيكي، لأنني لم أكن بحاجة إليها!

عدت إلى الخيمة مثلما غادرتها. لم أتعثّر بشيء، أو أصطدم بشبح، على كثرة الأشياء والأشباح. دخلت الخيمة المظلمة، ومددت يدي إلى حيث علبة الثقاب، فالتقطتها مباشرة، من دون أن أنظر إليها، وأشعلت الشمعة، بعود واحد هذه المرّة، فاضطرب لهيبها، وانطفأت قبل أن أستدير، لأنها كانت في موضعها المحدّد، في مهبّ الرّيح!

لم آبه، ولم أنتبه، وتحوّلت إلى حقيبتي الكبيرة، فانكببت عليها، معيداً وضع وترتيبّ

كل شيء في مكانه داخلها. ثم انتقلت إلى فراشي، وتمدّدت وأنا أرسل يدي لأتناول كتاباً، من دون أن أنظر إليه. وضعت الكتاب أمام وجهي، وفتحته على صفحة غير معيّنة، واستغرقت كأنما في القراءة. سقط الكتاب على وجهي، فتركته، كأنني أحمي به عينيّ من نور مبهر، وبدأت أستسلم شيئاً فشيئاً لسلطان النوم، وأنا أستعيد ماسمعته في الاجتماع : « مثل اقتلاع الأشجار .. شجرة، فشجرة، فشجرة»!

أما آخر ما خطر لي قبل أن أغفو فهو: «سوف ينهض معسكرنا مرّة أخرى، وأخرى، وأخرى»!

في غبشة الفجر وجدت نفسي في العراء، مكبّلاً بالأصفاد، وقد قوّضوا خيمتي، واستولوا على حاجياتي. وعندما أجلت بصري فيما حولي، وجدت أنّ المعسكر قد قوّض بكامله، واختفت جميع معالمه، وقد اصطفّ رتل طويل من الآليات، على أهبة الاستعداد للتّحرك إلى مكان ما!

أمّا أغرب ما في الأمر، فهو أنني رحت أتساءل جزعاً : من فعل ذلك؟! لماذا فعل ذلك؟!



جدّتي نزهة

(بعضها مستوحى من حكاية شعبية)

(١)

حين صرت قادراً على تمييز الوجوه، والأشياء، وحين بدأت، كطفل، أفهم قليلاً مايدور حولي، وجدت جدّتي نزهة تملأ حياتي كلّها تقريباً، فهي كانت أول ما وقع عليه نظري، وهي كانت أعظم ما فتحت عليه عينيّ.

كان وجه جدّتي نزهة هو أوّل ما أراه عندما أستيقظ صباحاً، فأجده قبالة وجهي، بتقاطيعه الطيبة اللطيفة، بينما يدها تربّت على كتفي وهي منحنية تهمس في أذني بصوت عذب، حنون: صطيف!.. حبيبي صطّوف! انهض يا ولدي.. انهض يا نور عيني.. صار الوقت ضحىً يا بني!

كنت أثب بكلّ قوتي نشيطاً، مبتسماً، وسعيداً باليوم الجديد سعادة كبيرة تجعلني أشعر بالأسف على الوقت الذي أضعته في النوم، فأطوّق عنق جدّتي بذراعيّ، وأشدّ وأشدّ، بينما هي تحاول تخليص عنقها بلطف وتمهّل.

تقول جدّتي مبتسمة: صباح الخير يا ولدي.. أسرع بالاغتسال، وارتد ثيابك، ريثما أعدّ فطورك.

لا أكاد أنتهي من القيام بواجباتي الصباحية حتى أسمع جدّتي تناديني: صطّوف.. صطيف.. هل تسمعني؟

أجيبها وأنا أتوجه نحوها: أسمعك يا جدّتي.. أنا قادم إليك.

تقول جدّتي وهي تضع الخبز على المائدة: اجلس وتناول فطورك.. إياك والسرعة.. امضغ جيّداً، واشبع جيداً.. وجبة الفطور ضرورية يا ولدي.. هل تسمعني

ياصطيف؟

فأجيبها وأنا أحاول تنفيذ توجيهاتها: نعم يا جدّتي.. أنا أمضغ جيّداً!

***

كنت يتيم الأمّ. لقد عرفت في ما بعد أنّ أمي توفّت في ولادتي. أمّا أبي فكان رجلاً وقوراً، قليل الكلام، طويل الصمت، دؤوباً في ملاحقة أعماله التي كان يسافر من أجلها كثيراً، لذلك كان كثير الغياب عن البيت. وحين يكون معنا يداعبني قليلاً. وبعد أن التحقت بالمدرسة صار يطرح عليّ أسئلة غريبة، بنبرة جادة، مخاطباً إياي باسمي الصحيح. يسألني، مثلاً: مصطفى.. من هو والد مريم ابنة عمران؟ فكنت أصاب بالدهشة، وأجيبه: لا أعرف! ما أدراني يا أبي؟ فكان يبتسم، ولا يعطني الجواب.

في ما بعد، فهمت أنه كان يمتحن تطوّر مقدرتي الذهنية، وأنّ سيّدتنا مريم لم تكن هي المقصودة بسؤاله الذي ظلّ يكرّره من حين لآخر زمناً طويلاً. وأخيراً انتبهت أنّ السؤال يتضمّن الجواب، وهتفت مبهوراً ومرتبكاً: والد مريم ابنة عمران هو عمران! وقد ابتسم أبي ابتسامة عريضة هذه المرّة، وربّت على كتفي، وقال بنبرة فخورة: طبعاً! أحسنت يا بنيّ.. ها أنت قد كبرت، وصرت شابّاً صغيراً!

***

كانت جدّتي مصرّة على مناداتي باسمي محرّفاً. ولم يحدث أبداً، بعد التحاقي بالمدرسة، بل بعد أن صرت رجلاً، أن نادتني باسمي الصحيح. وفي الفناء الفسيح، الذي يتوسط دارنا الكبيرة، والذي تحيطه أحواض الورود والشجيرات العطرة، كان صوتها يتردّد بين دقيقة وأخرى مخاطبة إياي وأترابي من أولاد الجيران: صطيف.. قف في هذه الجهة.. وأنت يا حسن، يا حبيبي، قف في تلك الجهة.. العبوا بحذر.. انتبهوا.. وأنت يا حنان لا تركضي هكذا..الخ!

كانت تتابعني بين أقراني بكلّ جوارحها، فلا أخرج عن دائرة بصرها أبداً. والحقيقة هي أنها أيضاً لم تكن تخرج عن دائرة بصري إلاّ لماماً، لأنني لم أكن أطيق غيابها ولو للحظة مهما انهمكت في اللعب، وفي مراقبة العصافير واليمامات التي تسكن آمنة مطمئنة في نوافذ بيتنا العالية. ولذلك كنت أقفز وأصرخ فرحاً حين تنضمّ

جدّتي إلينا أحياناً، وتعلّمنا بعض الألعاب الطريفة، أو بعض الأغاني الجميلة، بينما هي تردّد اسمي محرّفاً: صطّوف، لماذا تقف بعيداً هكذا؟ صطيف، لا ترفع صوتك إلى هذا الحدّ.. الأغنية لا تحتاج إلى كلّ هذا الصراخ!

(٢)

يا لها من حياة سعيدة، رغيدة، تلك الحياة التي عشتها في رعاية جدّتي نزهة، بل في أحضانها، طيلة مرحلة طفولتي الأولى. لكنّها لم تدم، مثلها مثل جميع مراحل الحياة!

ذات مساء، أجلسني أبي إلى جانبه، وراح يمسح بكفّه رأسي، فغمرتني حالة من النشوة القصوى والرضا العميق، ورحت أختلس النظر إلى وجهه الطافح بالحنان. خاطبني قائلاً: أنت كبرت يا مصطفى.. لم تعد طفلاً صغيراً.. وغداً سوف تذهب إلى المدرسة.

المدرسة! هتفت متهيّباً، وحوّلت عينيّ بسرعة إلى جدّتي، وكأني أخشى أن لاأجدها قربي. لقد كانت معلوماتي حول المدارس قليلة وبسيطة. كان عالماً بعيداً جدّاً وغامضاً جدّاً، ولذلك فقد أثار كلام أبي في نفسي مشاعر غريبة، إنما لذيذة، هي خليط من الفضول والتشوّق، والرهبة والحذر!

سألت أبي بانفعال: وهل ستذهب جدّتي معي إلى المدرسة؟ أجابني بحزم وهو يبتسم: لن تذهب جدّتك معك يا مصطفى.. سوف أصطحبك أنا غداً صباحاً فقط، وبعدئذ تذهب وتعود لوحدك.. المدرسة قريبة جدّاً.

خاطبتني جدّتي بنبرة أقلقني اضطرابها: سوف أكون في انتظارك على الغداء ياولدي.. أنت كبير الآن، وفي المدرسة سوف تكون مسروراً، فتتعرف على أصدقاء جدد، وتذهب وتعود مع زملائك أولاد الجيران، وسوف تكون لك كتبك ودفاترك وأقلامك، فتكتب وترسم.. والآن ، هيّا إلى النوم كي تستيقظ باكراً.. تعال يا صطّوفي .. ياحبيبي!

***

في اللحظة التي دخلت فيها إلى المدرسة، ووقفت أمام المدير وأبي إلى جانبي، أحسست بقوة أنّ مرحلة جديدة من حياتي قد بدأت حقاً.

سألني المدير وهو يفتح السجلّ ويمسك بالقلم: ما اسمك؟ أجبت مضطرباً، وأنا أنقل نظري بين ربطة عنقه المشجّرة وطربوشه الأحمر الفاقع، الأنيق: اسمي صطّوف! رفع المدير رأسه، ونظر في عينيّ باسماً إنّما معترضاً، فالتفت إلى أبي مستنجداً، لأجده يبتسم بدوره ويبقى صامتاً. فاجأني المدير بأنه يعرف اسمي. وقد قال وهو يدوّن في السجلّ: اسمك مصطفى.. مصطفى.. لا تتعامل بغيره أبداً.. لا تلفظه محرّفاً أبداً.. فهمت؟

ارتبكت ارتباكاً شديداً، وشعرت ببعض الخوف، لأنني لم أكن معتاداً مخاطبتي بتلك اللهجة الرسمية، بل لم أكن أعرف شيئاً عنها. وقد عدت أنقل نظري قلقاً بين وجه أبي ووجه المدير، متوقعاً النجدة والحماية من أبي، فطمأنتني ابتسامته الطبيعية الواثقة. وعندما تركني فجأة، وغادر على عجل دون أن يلتفت إليّ، عاودني الخوف إلى درجة عجزت معها عن التفكير، وعن استيعاب ما يجري حولي. وقد قادني المدير إلى صفّي وأنا مذهول تماماً، إلى أن وجدتني مختلطاً بزملائي التلاميذ، ومنهم من أعرفهم، فعاد إليّ اطمئناني وهدوئي.

سألني التلميذ الذي يشاركني المقعد عن اسمي، فتصوّرت جدّتي وهي تناديني باسمي المحرّف، ثمّ تصورت مدير المدرسة وهو يأمرني بأن لا أنطق اسمي إلاّ صحيحاً، فأجبت زميلي على مضض: اسمي مصطفى!

وحين قرع جرس الانصراف، طرت إلى الدار طيراناً، حتى أنني لم أنتبه إلى أيّ شيء في الطريق، ولن أنسى ما حييت وجه جدّتي وهي تطلّ برأسها من باب الدار مترقّبة ظهوري من بعيد. فلما صرت أمامها اختطفتني اختطافاً، وضمتني إلى صدرها بقوة بينما هي تغلق الباب بقدمها، وراحت تمطرني بقبلاتها وهي تتمتم بانفعال: صطّوف.. ولدي.. حبيبي.. صطيف.. أخبرني يا بنيّ، هل أعجبتك المدرسة؟

تذكّرت وجلاً أمر مدير المدرسة وأنا أسمعها تلفظ اسمي محرّفاً، فقلت: اسمي هو مصطفى يا جدّتي.. قال المدير أنه يتوجّب عليّ أن لا أستعمل غيره! وأحسست فجأة

بعضّة الجوع، فأضفت: أنا جائع يا جدّتي. فضحكت وقالت وهي تقودني إلى الداخل قابضة على كفّي: الطعام جاهز يا حبيبي.. ولكني سوف أناديك هنا، في البيت، كما يحلو لي.. أنت طفلي صطّوف مهما كبرت.. هل فهمت يا صطيف؟

لم أفهم مشاعر جدّتي، وسبب إصرارها على مناداتي باسمي محرّفاً، إلاّ حين صرت شاباً، حيث أدركت أنّ ذلك يجعلني أقرب إلى قلبها، ويجعلها تشعر أنني ما زلت أخصها أكثر مما أخص أيّ كائن آخر. غير أنّ عواطفها الجياشة، وحبّها العميق، وتعلقها الشديد بي، لم يكن أبداً على حساب واجباتي المدرسية التي كانت تساعدني على إنجازها. بل إنّها كانت، وهي البسيطة، تغرس في نفسي حبّ الوطن، وتحدّثني عن فلسطين، وما يفعله اليهود في فلسطين.

لقد كنّا في العام ١٩٤٨، حيث أعلن الصهاينة رسميّاً اغتصاب فلسطين العربية، بتوجيه ودعم من الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وبقية الدول الاستعمارية. ولقد كانت تلك مصيبة كبرى حلّت بالعرب والمسلمين عموماً في جميع أقطارهم، فزادت عذابهم عذاباً وحزنهم حزناً، فهبّ العرب على عجل يشكّلون «جيش الإنقاذ» في محاولة مرتجلة لإنقاذ فلسطين قبل أن يستكمل الوحش الصهيوني ابتلاعها.

(٣)

ذات مساء، في أول صيف عام ١٩٤٨، رأيت أبي مرتدياً لباس القتال، متنكّباً بندقية، ومعلّقاً قنبلة في حزامه. لقد التحق بجيش الإنقاذ، وها هو يستعدّ للانطلاق صباحاً إلى فلسطين.

جلس والدي في فناء دارنا الواسع، قرب شجيرة الياسمين، وجلس معه عدد من رفاقه المجاهدين، بينما تدفّق أهل الحيّ لوداعهم، صغاراً وكباراً، ونساءً وشيوخاً، يهلّلون ويكبّرون ويدعون لهم بالنصر.

كانت ليلة وداع المجاهدين، في جميع أحياء المدينة، من الليالي التي لا يمكن نسيانها، كأنّما عمّتها أفراح أعراس. وفي الصباح تقاطر المجاهدون بالمئات إلى مركز التجمّع في ساحة البلد الرئيسية التي اكتظت بالمودعين. وعندما انطلقت الحافلات متوجهة إلى

فلسطين علت أصوات التكبير، بينما الزغاريد النسائية الحادّة تصمّ الآذان.

لم يمض زمن طويل حتى عاد والدي إلينا شهيداً. لقد اقتربت من جثمانه، وحدّقت في وجهه الوقور، الصامت كعادته، فلم أشعر أنه فارق الحياة، بل توقعت أن يفتح عينيه ويكلّمني! كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة في مستشفى حماة الوطني، وقد نقل إليها من الجبهة جريحاً، على مراحل.

كانت جموع الناس تحتفل بعودة أبي شهيداً، مردّدة الأهازيج والهتافات مثلما فعلت يوم وداعه، بل أكثر. أمّا أنا فقد كنت مسحوراً، فخوراً، وقد بدت لي المقبرة، المكتظة بالمشيعين، مثل ميدان يقام فيه مهرجان. وكيف لا والتهاني تنهال عليّ، من الكبار والصغار، ورفاقي يحيطون بي، وينقلون أبصارهم بيني وبين المهنّئين، كأنهم يقولون: نحن رفاق ابن الشهيد!

وفي الدار، ظلّت جدّتي أياماً عديدة تستقبل المهنئين بالشهادة. وقد بدت متعبة، لكنّ ظلّ ابتسامة رصينة، راضية وفخورة، كان يكسو وجهها طيلة الوقت. أمّا أنا فلم أخرج عن دائرة بصرها أبداً أبداً، لا في زحمة التشييع، ولا في زحمة المهنّئين. كانت كلّما انفردت بي تهمس في أذني بنبرة عميقة: حبّ الوطن من الإيمان يا بنيّ.. ليس مؤمناً من لا يحبّ وطنه يا صطّوف..الجهاد في سبيل الوطن هو الإيمان، والاستشهاد حياة للوطن، ومفخرة لأهل الشهيد، ومكرمة ونعيماً للشهيد. فكنت أعجب وأنا أستمع إليها، وأشعر بالاطمئنان والرضا، وأقول لنفسي: من أين تأتي جدّتي بمثل هذه الكلمات العظيمة؟

(٤)

مرّت أعوام، وتلتها أعوام، وجدّتي نزهة على ما هي عليه في معاملتي. لقد تخرّجت في الجامعة، وخدمت ضابطاً في الجيش، واشتركت في إحدى الحروب الكبيرة ضدّ الصهاينة، لكني بقيت في نظر جدّتي «صطّوف الصغير»، فما أكاد أعود إلى الدار، بعد غياب طويل أم قصير، وما أكاد أضع المفتاح في الباب، حتى أسمع صوتها من الداخل، فكأنها لم تكن تفعل شيئاً طيلة فترة غيابي سوى انتظاري: صطيف.. هل

عدت يا ولدي؟ الحمد لله على سلامتك! وتتحامل على نفسها، فهي صارت بطيئة الحركة، وتنهض لاستقبالي، فتعانقني، وتمسح بكفّها رأسي: سوف أعدّ لك الطعام.. أنت لاتعتني بطعامك.. هذا واضح.. أنت هزيل وشاحب! ثمّ تضيف وهي تضع الخبز على المائدة: صطّوف.. هل تسمعني؟ لا تسرع في الأكل.. امضغ جيّداً، واشبع جيّداً! فأجيبها وأنا أتناول طعامي بسرعة: طيّب يا جدّتي.. أنا أمضغ.. شبعت! وأنهض متعجّلاً، فتقول جدّتي مستنكرة: شبعت؟ أنت لم تأكل شيئاً بعد!

***

في الحقيقة، كنت في تلك المرحلة من حياتي مشغولاً جدّاً. لقد عيّنت مدرّساً في أحد المعاهد، إضافة إلى انخراطي في عدد من النشاطات العامة. وصرت كثيراً ما أستقبل أصدقائي في دارنا، وأستقبل طلابي أيضاً، لتبادل الأحاديث حول هموم الأمة. غير أنّ ذلك كلّه لم يبدّل شيئاً في نظرة جدّتي إليّ، ولا في طريقة مخاطبتها ومعاملتها لي.

ذات مرّة كان في زيارتي عدد من الطلبة، وكنت أشرح لهم فكرة بالغة الدقّة، وهم ينصتون بانتباه شديد، وفجأة، انطلق صوت جدّتي من المطبخ عالياً، ممطوطاً: صطّوف!

فوجئ الضيوف بالنداء الممطوط (تدليعاً لي!) وبالاسم المحرّف، فابتسموا، وران الصمت للحظة، وكنت أهمّ باستكمال ما انقطع من كلامي قبل أن أنهض ملبّياً نداءها، وإذا بها تعاود النداء ممطوطاً ومنغّماً أكثر! فانفجر الطلاب هذه المرّة في عاصفة من الضحك، وبدا أنهم فعلوا ذلك رغماً عن إرادتهم، ولعلّ السبب هو الاختلاف التام بين حديثي «الخطير» الذي يشدّ الأعصاب وبين نداء جدّتي البسيط إلى أبعد حدود البساطة، الذي يريح الأعصاب ولا يشدّها! وقد ضحكت مع الضاحكين، طبعاً، لكني، أقول الصدق، شعرت بغير قليل من الضيق والحرج! أمّا جدّتي فقد عادت تصرخ: صطّوف! ألا تسمعني؟ كفّوا قليلاً عن اللعب يا أولاد، وتعال خذ الشاي إلى أصحابك!

انفجرت عاصفة أخرى من الضحك، أقوى من سابقتها، ورحت أتظاهر بالمرح وأنا

أنهض وأتوجه نحو جدّتي، فاستقبلتني قائلة: يا لكم من أولاد! ألا تملّون من اللعب والضحك؟ انتبه.. الإبريق ساخنٍ جدّاً.. إياك وأن تسكب الشاي على نفسك!

لقد كان كلّ ما قالته مسموعاً بوضوح من قبل جميع ضيوفي، فتصوّروا!

(٥)

عندما خلوت إلى نفسي وجدتني، لأول مرّة في حياتي، متضايقاً من جدّتي! وسرعان ما أحزنني ما شعرت به، فقد كنت مخطئاً بالطبع، ولا يجوز لي أبداً أن أغضب أو أتضايق منها! لكني رحت أفكّر باتباع أسلوب غير مباشر يجعلها تكفّ عن تصغيري، ومعاملتي كطفل، ومناداتي باسم محرّف! ولكن، ما هي تلك الطريقة يا مصطفى؟ ماذا تفعل يا مصطفى؟ كيف تجعل جدّتك تعاملك بما يليق بعمرك وبمركزك العلمي والاجتماعي يا مصطفى؟

كنت أفكّر على هذا النحو، وأسأل نفسي مثل هذه الأسئلة لأيام وأيام، وقد ركبني الهمّ. لكني كنت مخطئاً في تفكيري ذاك. وأنا الآن، عندما أتذكّر همّي وانزعاجي، أشعر أنني كنت أتصرّف فعلاً مثل طفل! لقد كانت جدّتي تنظر إليّ، وإلى ضيوفي، مثلما تنظر الأمّ إلى أولادها، فتراهم صغاراً مهما كبروا. ولم يكن في ذلك أيّ خطأ. والضيوف، عندما ضحكوا، لم تنقص قيمتي في نظرهم. ولا شكّ بأنّ كل واحد منهم تذكّر في تلك اللحظة أمّه، أو جدّته، أو جدّه، وتصرّفاتهم المشابهة.

غير أنّ ما حدث هو أنني تخيّلت يومئذ حلاً، اعتقدت أنه سوف يرغم جدّتي على معاملتي بصفتي أستاذاً، وضابطاً في الاحتياط، ومحارباً سابقاً. بصفتي رجلاً لا طفلاً، وبصفتي مصطفى، لا صطّوف! وأنا، عندما أتذكّر اليوم ذلك الحلّ الذي وضعته، وكيفية تنفيذه، ونتيجته، أشعر بالحرج والخجل بيني وبين نفسي. إذ من حسن الحظّ أنّ أحداً لم يطّلع عليه يومئذ، وها أنا أكشف الغطاء عنه الآن!

(٦)

بعد أيام من حادثة الضحك، اقتربت من جدّتي، وقد كانت منهمكة في سقاية

الورود، وسألتها: جدّتي.. لماذا لا تخرجين من الدار أبداً؟

التفتت إليّ مستغربة، وسألتني بدورها: ولماذا أخرج؟

قلت: اخرجي للنزهة يا جدّتي.. توجد في المدينة حدائق كبيرة، فيها ورود جميلة.

بان على وجهها ما يشبه الارتياب، وعادت إلى سقاية ورودها وهي تقول: وهذه.. أليست وروداً؟

تبعتها وأنا أقول بإصرار: الخروج مفيد لصحتك.. عليك أن تمشي، وأن تري الناس..

أردت أن أضيف أسباباً أخرى، لكني تريّثت حين رأيتها تحدجني بنظرة شديدة الاستغراب: ما قصّتك اليوم يا صطّوف؟ لماذا تريد أن أخرج من الدار؟

ارتبكت، وأسرعت أوضّح لها: أنا أريد إخراجك من الدار؟ أنا أريد أن نخرج معاً، أنت وأنا، ونتجوّل في المدينة..

قاطعتني وهي تبتسم، وتهزّ رأسها، وتواصل سقاية الورود: أنت لن تكبر أبداً! كيف أترك أشغال البيت، التي تأخذ كلّ وقتي، وكلّ نهاري، وأخرج للتسكّع في الطرقات بلا سبب؟ وعندما نعود ولا تجد طعامك؟

قاطعتها بدوري متسلّحاً بالصبر والهدوء: في الحقيقة، أنا أريدك يا جدّتي أن.. تتفرّجي عليّ وأنا أقوم بأداء وظيفتي في المعهد!

كان ذلك هو الحلّ الذي خطر لي بالفعل، واقتنعت به، وتصوّرت أنه كفيل بجعل جدّتي تعاملني كرجل، وكأستاذ محترم، فقرّرت أن أقنعها بالوقوف في حديقة المعهد، والتفرّج عليّ من نافذة قاعة المحاضرات!

يا لها من فكرة سخيفة، مضحكة، لكنني اقتنعت بها، ولم أرها سخيفة ولامضحكة، ويا للعجب!

(٧)

بالفعل، أخذت جدّتي معي، في اليوم التالي، إلى المعهد، وأوصلتها إلى نافذة القاعة المتطرّفة، حيث لا يمرّ أحد من هناك، وحيث تراني عبر النافذة على مقربة منها،

وترى القاعة المكتظّة بالطلبة وهم يستمعون إلى محاضرتي!

وقفت في مواجهة الطلبة، وبدأت محاضرتي وقد سيطر عليّ الإحساس بوجود جدّتي، ومتابعتها لحركاتي، والاستماع إليّ، فرحت أتحدّث بنبرات قوية، عالية، وأنا أشير بيدي إلى هنا وهناك، من حين لآخر، وأرفع قبضتي عالياً، كأني في مهرجان وليس في قاعة درس، بينما الطلبة يستمعون إليّ بانتباه، وبإعجاب مشوب بالاستغراب!

لكني لم أكن مهتمّاً بأثر محاضرتي في الطلبة. كان كلّ همّي هو وقع وأثر حركاتي ونبراتي في جدّتي التي لم تغب عن بالي لحظة واحدة. وقد فكّرت، وأنا أواصل إلقاء محاضرتي، أنّ جدّتي لن تجرؤ بعد اليوم أبداً على معاملتي كطفل، ومناداتي باسمي المحرّف!

* * *

عندما انتهت المحاضرة، أسرعت بمغادرة القاعة، وتوجهت إلى الحديقة الخلفية حيث تركت جدّتي، فوجدتها تنتظرني واجمة وكفّها على خدّها!

أقلقني وضعها، فسألتها بحذر وأنا أقودها في طريقنا إلى البيت: ما رأيك يا جدّتي؟

حدجتني بطرف عينها، كأنما هي تراني لأول مرّة، وواصلت سيرها مطرقة، متمهلة، دون أن تجيبني!

عدت أسألها متلهفاً، وقد بدأ قلقي يتزايد: جدّتي.. لم تجيبي على سؤالي.. ما رأيك، بعد أن شاهدتني، وسمعتني، وأنا ألقي محاضرتي؟ وإذا بها تنفجر في وجهي بقوة قائلة: ألا تستحي يا ولد؟ كلّ رفاقك يجلسون هادئين، صامتين، مهذّبين، وأنت واقف تصرخ لوحدك، وتلوّح بذراعيك يميناً وشمالاً، مثل المجانين؟ ماذا أصابك يا صطّوف، يا ولدي، هل جننت؟

قالت ما قالته، وتركتني واقفاً، مذهولاً، فاغراً فمي، وانطلقت بكلّ ما تملك من قوة في اتجاه الدار، وهي تتمايل مرتجفة من شدّة غضبها!

* * *

القطط

(المكان والزمان : سورية – ثمانينيات القرن العشرين)

توجهت بهيرة نحو الجدار المنخفض عن مستوى رأسها، الذي يفصل بين صحن الدار السماوية وبين الفضاء الخارجي، فجعلته تحت ذقنها، وأرسلت نظرها إلى الأفق، حيث الشفق الدموي اللون. ذلك الشفق، المصبوغ بلون الدّم القاني، هو الذي أفقدها حذرها، واستدرجها نحو الجدار، وشدّ نظرها إليه. ولكن، هاهو دويّ انفجار جديد، قريب، يعيدها إلى الواقع، فتختلس نظرات وجلة إلى الأفق، قبل أن تستردّ بصرها كسيراً. وهاهي زخّات رصاص متقطّعة، تجعل رأسها يغوص، غريزيّاً، بين كتفيها، كأنما هو يقاوم ثقلاً يضغطه إلى الأسفل.

تحولت بهيرة إلى الداخل، منحنية الظهر متمايلة، كما لو أنها سكرى تترنح. توقّفت وسط صحن الدّار وقد تطاول عنقها، وراح يتمايل برأسها، مثل زاحفة وقعت في مصيدة. تشابكت أصابع كفّيها، وافترقت. دارت حول نفسها، باحثة عند قدميها عن شيء لا تعرف ما هو، ولا وجود له. كان الفضاء من حولها مشبعاً برائحة الدّم والموت، ولم يكن ثمّة مهرب، فأجالت بصرها تستعرض نباتاتها كأنها تستنجد بها: الرمّانة الهرمة، والليمونة الفتيّة، وحوض الخضار، ثم حوض الورود الشوكية، والأزهار غير الشوكية، الكثيفة، ذات الأوراق الطريّة والسيقان الطويلة. راودتها أمنية غريبة، مستحيلة: لو أنها تستطيع التغلغل بين هذه السيقان والأوراق، والتلاشي في ظلماتها مثل أية زاحفة.. مثل دودة!

كفّت المرأة عن رؤية أي شيء، وعن سماع أي صوت، وألقت بثقلها كاملاً على ساقها اليسرى، ثم نقلته توّاً إلى ساقها اليمنى، لكنها عادت فوزّعته بالعدل، على

الساقين المرتجفتين كلتيهما. ولم تلبث أن هرعت مترنّحة إلى داخل البيت، عندما عادت أصوات إطلاق النار تلعلع وتدوّي.

انكمشت في زاوية من زوايا الغرفة، ساكنة مذهولة، وبعد أن استردّت بعض روعها نجحت في تأمّل وحدتها بشيء من الوضوح، وفي تذكّر زوجها الكهل، الذي خرج قبل أيام لاستطلاع الأحوال، والحصول على بعض الطعام، ولم يعد بعد. استعرضت صوراً مشوّشة للبيوت الفقيرة المجاورة، ولسكانها البسطاء، في حيّهم النائي، العشوائي. لكنّ تصوّراتها سرعان ما تبخّرت تماماً، نتيجة اشتداد دويّ إطلاق النار. إنها وحيدة، تحتمي داخل صدفتها من الموت، وقد تحوّلت جميع البيوت من حولها إلى مجرّد أصداف، مغلقة ساكنة، لا صلة بينها!

وجدت بهيرة نفسها واقفة وسط الغرفة، وقد شدّ انتباهها صوت غريب. حملقت في الركن، حيث مصدر الصوت، فرأت القطّة «فلّة» منتصبة على قائمتيها الخلفيتين، وهي تنشب مخالبها تباعاً في غطاء أحد المساند. لاحظت القطّة انتباه سيّدتها إلى ما تفعله، فتوقّفت عن تأدية تمارينها. بدت كأنما تتوقّع زجراً وتتأهّب له. لكنها تركت قائمتها الأمامية اليمنى معلّقة في الفراغ، وأبقت مخالب اليسرى مغروزة في القماش، أمّا رأسها فأدارته نحو سيّدتها ترمقها مستطلعة! كانت القطة مستعدّة تماماً لجميع الاحتمالات، من متابعة تمارينها، إلى المواجهة، إلى الفرار بعيداً بأقصى سرعة. لكنها في وقفتها المستهترة، المتحدّية، لم تكن خائفة ولا مطمئنّة، لا راضية ولا غاضبة، وقد لاحت على وجهها الجميل إمارات استغراب واستهجان، كأنما هي تستطيع أن تنطق، وتوشك أن تقول: لماذا تحملقين بي هكذا أيتها المرأة البلهاء؟ ما الذي يستدعي مثل هذه الحملقة؟

بالفعل، كانت بهيرة تحملق في وجه قطّتها بتركيز غير طبيعي. لقد راحت تتبادل معها نظرات متكافئة، كما لو أنهما قطّتان، أو امرأتان. أمعنت النظر في مخالب القطّة، وفي وبرها الرائع، وهي تتمنّى لو أنها مثلها، يقتصر اهتمامها فقط على العناية بأظافرها وشعرها، ولو أنها تستطيع الدخول تحت السرير، والمقاعد، والقفز إلى الكوّة في أعلى الجدار، والتسلل داخل شجيرات الورد الكثيفة. صار هاجسها الملحّ هو

الانمحاق، أو التضاؤل على الأقل، لتصبح في حجم القطّة. لم تعد تطيق حجم جسمها، وتمنّت، بخوف شديد، لو أنها تستطيع خلع جسمها مثلما تخلع ثوبها. وبالفعل، راحت تتململ، وتتلوى، كما لو أنها تهمّ بخلع ثوبها مستصعبة ذلك!

لم تعد بهيرة قادرة على الاستمرار في الوقوف، فتهالكت على الأرض، وراحت تحاول بإصرار إخفاء ساقيها تماماً تحت مؤخّرتها، فتحرّك جسمها كلّه يمنة ويسرة، كأنما هي تطحن ساقيها. وكانت تحاول، في الوقت نفسه، إخفاء ذراعيها في صدرها، فتتكوّر، وتتكوّر، متوهّمة أنها تتضاءل، وتتضاءل. غير أن نظرها لم يغب عن القطّة أبداً، وظلّت تحدّق في عينيها، بأمل غريب، ورجاء مريب!

لم تعد بهيرة تسمع أصوات القصف المستمر، مع أنه كان مستمرّاً. كانت مثل القطّة، التي بدت غير آبهة على الإطلاق لما يحدث في الخارج. وقد انتزعت القطة فجأة مخالب قائمتها اليسرى من القماش، فأحدث فعلها صوتاً سمعته المرأة بوضوح، ويا للعجب. لقد فعلت القطة ذلك بملء إرادتها، ودون قلق من الزّجر، ثم استدارت متجهة نحو سيّدتها، فأقعت على مؤخرتها، مستندة إلى قائمتيها الأماميتين، المنتصبتين بطولهما الكامل، وراحت ترمق وجه المرأة بفضول، مشوب بما يشبه الإشفاق بلا لهفة، والاحتقار بلا ضغينة!

هتفت بهيرة بصوت يشبه الحشرجة: «فلّة»! بدا النداء مثل استغاثة مروّعة. حتى أن القطّة تململت، مظهرة ما يشبه الاهتمام، والتأثّر، والاستعداد للنجدة. أما المرأة فقد بدت، ويا للغرابة، كأنما هي مقتنعة بقدرة القطّة على نجدتها. لكنّ المشهد تبدّل بكامله بغتة، مثل الانتقال من عالم إلى عالم، بلمسة لجهاز توجيه التلفاز. فقد أخرجت القطّة لسانها بلا مقدّمات، وانهمكت في لعق محيط شدقها، متلذّذة مغمضة العينين، منصرفة كلّياً عن صاحبتها التعيسة، كأنما هي لا تشعر بوجودها على الإطلاق.

تململت المرأة وقد انتابها جزع إضافي، ومزيد من الإحساس بالوحشة. ثم لاحظت عرضاً بقايا فريسة، على مقربة من القطّة، فجاشت عصارة معدتها، وتلقّت على الفور عضّة جوع مؤلمة. لكنها تجاهلت عضّة الجوع، وعادت تتكوّر، وتتكوّر، مستجدية شيئاً من اهتمام القطّة. بل هي همّت بالتوجّه نحوها حابية، تدبّ على يديها

ورجليها. صارت تحلم أن تتلقاها القطة بين ذراعيها مثلما لو أنها أمها أو أختها،، فتضمّها إلى صدرها، وتهدهدها حتى تنام. لقد تطلّعت، بإيمان بائس، إلى معجزة تجعل القطّة قادرة على إطعامها، ورعايتها، وحمايتها. أما القطّة، فقد فتحت عينيها على سعتهما، وعادت تراقب تصرّفات المرأة بحذر، وبانتباه شديد!

فجأة، ظهر في مدخل الغرفة رجل طويل، نحيل شاحب، يرتدي ملابس نوم مقلّمة، وينتعل حذاءً منزلياً خفيفاً رخيصاً، فتحوّلت بهيرة إليه ساكنة صامتة. بدأ جسمها العودة إلى حجمه الطبيعي، وصارت تسمع بوضوح تام دويّ القصف الذي لم يتوقّف أبداً. همّت بالنهوض، لكنها عادت وتهالكت، كأنّما هي عدلت عن قرارها.

أما الرجل، الذي كان ينظر إلى بهيرة صامتاً بدوره، فقد جلس القرفصاء عند الباب، مسنداً ظهره إلى الجدار، متظاهراً تظاهراً بائساً أنه يمتلك وقته، ويمتلك نفسه. لكن بهيرة نهضت أخيراً، وتوجّهت نحو الرجل، فنهض بدوره وتوجّه نحوها، وعندما صارا متقابلين، مدّ يده إليها بكيس صغير، يحتوي خبزاً وحبّات بطاطا مسلوقة . تناولت الكيس، وراحت للحظة تفتّش حولها، ثم وضعته خلفها على الأرض، وعادت تحدّق صامتة في وجه الرجل.

تململ الرجل، ثم قال بنبرة حنون: « كلي يا أختي.. ألست جائعة؟ ألا تأكلين؟» ولم يجد ما يضيفه، فحاول أن يبتسم، لكن ابتسامته انهارت على الفور أمام الجمل المفكّكة، والكلمات المهشّمة، التي تناثرت من بين شفتي المرأة المرتجفتين. وقد فهم أنها تحدّثه عن زوجها، صهره الذي خرج قبل أيام لا تدري عددها، ولم يعد بعد. أطرق الرجل هنيهة مفكّراً، وكاد يبلّغها نبأ مصرع زوجها، لكنه استحضر مشهد الجثّة الملقاة في منتصف الطريق، بين بيته وبيت أخته، ومشاهد الجثث الأخرى المنتشرة هنا وهناك، فامتنع عن تبليغها، وتظاهر بالإصغاء لدويّ القذائف ولعلعة الرصاص، بينما هو يفكّر بحجم المخاطرة التي خاضها منفرداً، كي يصل إلى بيت أخته!

تساءل الرجل في سرّه عما إذا كان ممكناً اصطحاب أخته معه إلى بيته؟ فجزم باستحالة ذلك. قد يستطيع العودة لوحده، بمفرده، مثلما جاء، معتمداً على رشاقته ونباهته، وعلى قدر ضئيل جدّاً من الحظ، أما أن يصطحب أخته، فذلك يعني مقتلهما على

الأغلب، بل حتماً. ثم كيف سيعبر معها مجتازاً الجثث، وخصوصاً جثّة زوجها؟

أما بهيرة، فكانت تنتظر على أحرّ من الجمر أن يجيبها أخوها على أسئلة ملحّة، لم تطرحها عليه أصلاً. هو من جهته، لم يعد يعرف ما الذي ينبغي قوله في موقف كهذا الموقف. وسرعان ما وجد نفسه يستعين بطبيعته المرحة، وبروحه الفكهة، فاستغاث بذاكرته، وبذكرياتهما المشتركة، حين كانا يافعين، حيث كانت لا تكفّ عن الضحك وهي تستمع إلى فكاهاته، وتتابع طرائفه. لقد كاد أن ينطق بما يستدعي الضحك، لكنه عدل عن ذلك وهو يرى أخته تتحوّل عنه، وتغفل عن وجوده، فتتكوّم، وتتكوّر، وتتكوّر، بينما هي تتابع القطّة، التي كانت تتحرّك متباطئة نحو الخبز وحبّات البطاطا!

تمطّت القطّة، وتثاءبت، قبل أن تشمّ الخبز والبطاطا بلا رغبة في الأكل. وهاهنا خطر للرجل أن حركات القطة، على تفاهتها، تسمح بقول كلام ما، فأشار بيده إلى القطّة، التي رمقته بازدراء، وقال: «أنظري يا أختي..»! ولم يجد ما يضيفه، لكن إصبعه ظلّت موجّهة نحو القطّة، بينما بهيرة تواصل تكوّرها، مردّدة نظرها بين أخيها وبين قطّتها.

أردف الرجل، محاولاً الانطلاق في الحديث: «يا لها من قطّة»! وبعد أن سيطر على لسانه بصعوبة، أضاف: «أنظري يا بهيرة.. كم هي هادئة، وواثقة، وغير آبهة، ولا معنية على الإطلاق بالأهوال هناك..»! قال ما قاله غير مدرك، طبعاً، أثره الخطير في أخته. ثم تدفّق كلامه بسلاسة السنين الخوالي: « هذه القطّة رفيقة طيّبة، ومن حسن الحظ أنها معك.. أنا أفضّل صحبتها على صحبة زوجتي وأولادي..»! كان يهذر محاولاً التخفيف عنها، لكنها لم تظهر أية استجابة، ولم يطرأ على وضعها أي تغيير، بل واصلت محاولاتها للتضاؤل!

اندفع الأخ، مصمّماً على انتشال أخته من اضطرابها، فهتف بحماسة مصطنعة، وبنبرة مسرحيّة: «ما رأيك يا بهيرة لو تحوّلت هذه القطّة إلى امرأة؟ أو تحوّلت أنت إلى..»! وضرب على فخذه بكفّه، وتظاهر بالقهقهة، وأضاف» ما رأيك لو تحوّلت أنت إلى قطّة؟ إما أنت قطّة، وإما هي امرأة، فتكون رفيقتك، وتكونين رفيقتها؟». وعاد يضرب بكفّه على فخذه، ويتصنّع القهقهة: «هل تذكرين يا بهيرة، كيف كنت أتعاطى

السحر؟ ليس تماماً، بل كواحد من الهواة، لكني كنت أنجح في بعض أبوابه، هل تذكرين كيف كنت أضع قطعة السكاكر تحت كفّي اليمنى، فتختفي وتظهر تحت كفّي اليسرى؟ والآن، أنا أستطيع تحويلك إلى قطّة، ما رأيك؟ هل تريدين الانضمام إلى قطّتك؟»!

لم يدرك الرجل مغزى اتساع حدقتي أخته، وازدياد شحوبها وقلقها، بينما هي تتابع حركاته وأقواله. وقد انطلق يباشر تنفيذ اقتراحه، فغمز بعينه في البداية ممازحاً، ثم قطّب جبينه، وراح يروّض عضلات وجهه، منخرطاً في لعبة كثيراً ما لعبا مثلها في الماضي البعيد، فحرّك ذراعيه على طولهما حركات رشيقة غريبة، وصنع بكفّيه وأصابعه دوائر في الهواء، وأرسلها إلى أخته، وأطلق أصواتاً مبهمة، مزعجة، ثم راح يلحّ بقوة، آمراً أخته بعينيه ويديه، وكلماته: «تحوّلي إلى قطّة، تحوّلي إلى قطّة»! وإذا بالمرأة المسكينة تنكبّ على وجهها، وتنطلق في أنحاء الغرفة، حابية على يديها ورجليها، وهي تموء!

ظنّ الرجل أنها تجاريه في المزاح، إنما أكثر مما توقّع بكثير، فلم يجد بدّاً من التظاهر بالمرح، وهتف: «نجحت التجربة.. أنت الآن قطة.. أحسنت يا بهيرة»! لكن المرأة واصلت حبوها، ومواءها. هي كانت تحبو وتموء فعلاً، مثل القطط. انتبه أخوها فجأة إلى ذلك الخيط الرفيع، الواهي، الذي يفصل أحياناً بين الجدّ والهزل، وبين الصحة والمرض، وبين الحياة والموت، لكنه لم يستطع القطع باستنتاج محدّد، فاضطرب ذهنه وأسقط في يده، وهتف قلقاً: «هذا يكفي يا بهيرة، هذا يكفي»! لكن دلالة مشهد المرأة، وهي تواصل الحبو والمواء، صارت قاطعة، ثم صارت مروّعة حقاً!

انقبض قلب الرجل وهو يقدّر بسرعة خطورة ما حدث، فهتف بقوة، مرتجلاً علاجاً خطر في باله: «بهيرة.. هذا يكفي.. آمرك بالعودة إلى حالتك كما كنت!». هذه المرّة لم يخاطبها مداعباً، كما في السنين الخوالي، ولا ممازحاً كما خاطبها قبل لحظات، فقد انهارت قواعد اللعبة، ولم تعد مجرّد تسلية، وها هو يتّخذ وضعيّة الطبيب النفساني، محاولاً إيقاظها مغناطيسياً!

راح يحرّك ذراعيه في الهواء، ويصنع بأصابعه الدوائر الوهمية، ويهمهم ويزمجر،

لكن المرأة لم تستجب، بل ظلّت تحبو، وتموء، غير شاعرة بوجوده. فلما أيقن من ذلك، اقشعرّ بدنه، وعصف به هلع رهيب، فهبّ واقفاً، وخطا خطوة في اتجاه أخته، وإذا القطّة، على مقربة منها، تنتفض هائجة، فتقوّس ظهرها، وتضيّق ما بين قوائمها، وتزمجر مهدّدة، وقد انتصب وبرها كالإبر، ثم تنطلق واثبة إلى الغرفة الداخلية المظلمة!

تحوّل الرجل إلى أخته، فذعر وهو يراها تقوّس بدورها ظهرها، وتضيّق مابين ذراعيها وساقيها، وتهرّ مزمجرة، قبل أن تحبو بسرعة خلف القطّة إلى الداخل المظلم!

بينما الرجل المشدوه واقفاً، يحاول التّحرّر من ذهوله، والسيطرة على نفسه، وتقدير ما يتوجّب عليه فعله بصدد مأساة أخته، اقتحم الغرفة فجأة عدد من المسلحين، فأبدى انصياعه واستسلامه على الفور، مبرهناً أنه معتاد على مثل هذه المفاجآت والمواقف. تبادل معه كبير المسلّحين بضع كلمات مبهمة، ثمّ أمره بالركوع، وأطلق النار على رأسه المنخفض، فأرداه صريعاً!

تصادمت مناكب المسلّحين وهم يخبّون في الغرفة الصغيرة، التي لا يوجد فيها ما يعيق حركتهم، أو يلفت انتباههم، لا ما خفّ حمله وغلا ثمنه، ولا ما ثقل وزنه ورخص ثمنه. كانت غرفة شبه عارية من الأثاث، وشبه خالية، إلا من الجثّة الساخنة. وقد بدا على المسلّحين الضّيق، من ضيق الغرفة، وعريها شبه التام، ووحشتها. لقد تململ المسلحون وهم يهمّون بالمغادرة.

لكنّ أحدهم وقف يحدّق في الغرفة الداخلية المظلمة، فيرى أربع عيون حيوانية تومض في العتمة، مثل مصابيح بالغة الصّغر توشك على الانطفاء. صوّب سلاحه إلى الداخل، حيث العيون الغامضة، متمهّلاً مفكّراً. سأله كبير المسلّحين: «ماذا هناك؟»! أجاب وهو يمعن النظر أكثر: «أنظر.. إنها أربع عيون تومض»! أرسل كبير المسلّحين نظره إلى الداخل متمعّناً للحظة، وقال متهكّما: «ماذا هناك؟ إنها أربع عيون لقطّتين، أليس هذا واضحاً، أم تراك تظنّها لذئبين؟»! وضحك باقتضاب وسخرية هذه المرّة، فخفض المسلّح فوّهة بندقيته، ودمدم مغتاظاً من اتهامه بالجهل: «من لا يعرف أن عيون

بعض الحيوانات تومض في الظلام؟» نهره رئيسه: « أنت تعرف إذن؟ ومع ذلك كنت ستطلق النار على مجرّد قطط مسكينة»!

بعد لحظات خيّم على المكان صمت المقابر، رغم استمرار دويّ الانفجارات ولعلعة الرصاص. صمت واضح، وضجّة واضحة، في آن واحد. يا للمعجزة!

وفي الداخل المظلم، كانت عيون أربع تتبادل النظرات، غير واعية وجود جثّة الرجل الممدّدة على بعد خطوات، وغير آبهة، ولا متّصلة بما يحدث في العالم الخارجي من لعلعات وانفجارات، فهي تومض في العتمة، بحذر وبانتباه شديدين، بلا دافع ولا هدف، لا خائفة ولا مطمئنة، لا راضية ولا غاضبة، وفي وميضها ذلك الإشفاق بلا لهفة، وذلك الاحتقار بلا ضغينة!



الأنفاق والهدف

(المكان والزمان: ريف حماة في خمسينيات القرن العشرين)

(١)

وصل موكب معالي الوزير إلى القرية النائية الصغيرة، الفقيرة، المنسية على تخوم البادية، فهاجت كلابها وماجت، وأحدثت من الصخب ما جعل نباحها يغطي على هتافات الترحيب البائسة التي ردّدها الفلاحون لحظة ترجّل الوزير من السيارة.

كانت زيارة فريدة، لم يحدث قطّ مثلها من قبل، وهذا ما جعل الكلاب يجنّ جنونها أمام ما رأت من عجائب! وكان الفلاحون، الذين أذهلهم الموكب الرسمي بكلّ تفاصيله، والذين اقتصرت أفكارهم وأحاسيسهم على عيونهم، قد احتشدوا عند مدخل القرية الغربي منذ الصباح الباكر. لقد حضر إلى قريتهم منذ الأمس رئيس مخفر الدرك شخصياً، وأبلغهم النبأ المدهش، وأعطاهم نصائحه بصدد الاستقبال والاجتماع والوداع..الخ.

القرية لم يكن فيها أيّ أثر للدولة، لا مخفر ولا رئيس مخفر، لا مدرسة ولا معلّم مدرسة. والمختار لم يكن يختلف في أيّ شيء عن أيّ فلاح آخر. وكان التلاميذ الصغار يسيرون على أقدامهم عدّة كيلومترات إلى قرية أخرى، أكبر قليلاً، حيث توجد مدرسة ابتدائية تستقبل تلامذة عدّة قرى. وكذلك الحال بالنسبة للرجال، الذين قليلاً ما كانوا يحتاجون إلى الاتصال بالحكومة عن طريق المخفر.

كان معظم الفلاحين المستقبلين للوزير، وهم على أيّة حال بِضع عشرات لا أكثر، من الكهول والشيوخ. فقد رحلت أكثرية الشبان إلى المدن طلباً للعمل خلال النصف

الثاني من الصيف. وهكذا غلب على الاستقبال طابع البساطة إلى درجة السذاجة، وشابه قدر واضح من الارتباك.

النساء تجمّعن على أسطحة الدور الترابية القاحلة، وأطلقت اثنتان بخفر زغرودتين، بإيعاز من أحد الشيوخ. أمّا الأولاد فقد توزّعوا بين الأسطحة، على مقربة من النساء، وبين مدخل القرية بين الرجال، وقد أنهكهم الترقب والانفعال والتوتّر في انتظار وصول موكب الوزير.

لقد انشغل الفلاحون أكثر من أيّ أمر آخر بمسألة ما إذا كان معالي الوزير سوف يتناول طعام الغداء في قريتهم. وقد قال رئيس المخفر أنّ هذا محتمل. غير أنّ الوزير أعلن لحظة وصوله، بكلمات بسيطة مرحة أثارت الدهشة والإعجاب، أنه سوف لن يبقى طويلاً معهم.. نصف ساعة لا أكثر.. لأنه سيزور قرى أخرى، وينتقل في المساء إلى محافظة أخرى يتجوّل في قراها طيلة الغد.

×××

جلس الوزير وصحبه على مقاعد صفّت تحت شجرة توت هرمة عملاقة، ورشف ثلاثة فناجين من القهوة المرّة التي قدّمت إليه، ثم طلب من الفلاحين أن يتجمعوا قربه.. أن يجلسوا معه.. وقد فعل ذلك كلّه ببساطة مسّت قلوب الناس البسطاء، فأسرعوا يتكومون أمامه.

ألقى الوزير بسرعة، وبنبرة هادئة، وبكلمات مفهومة إلى حدّ كبير، خطاباً مقتضباً حول قانون الإصلاح الزراعي، أسبابه وأهدافه، وما أنجز منه وما سوف ينجز في المستقبل القريب، ثم طلب منهم أن يطرحوا أسئلتهم، فبهتوا في معظمهم للحظة، ثم وقف أحدهم وطرح مشكلة خاصة تحتاج حلاً بسيطاً، فأوعز الزير إلى رئيس المخفر بحلّها، وناوله رجل آخر شكوى مكتوبة ألقى الوزير على محتوياتها نظرة سريعة، ثم ناولها لمرافقه وهو يقول لصاحبها: إن شاء الله خير. وهكذا كادت الزيارة تنتهي في هذه الحدود، لولا أن برز فجأة من بين الجمع فتى في مطلع الشباب، خاطب الوزير بنبرة منفعلة بسبب التهيّب، قائلاً: يا معالي الوزير، هل تسمح لي بالكلام؟

ردّ الوزير على الفور وهو يعطيه كامل حضوره وانتباهه: طبعاً.. تفضّل .. قل

ماتريد.

قال الفتى وهو يحاول بصعوبة السيطرة على انفعاله: يا معالي الوزير.. نحن.. أسرتنا.. أقصد أسر عديدة هنا في قريتنا.. لم نستفد من قانون الإصلاح الزراعي.. لم يشملنا توزيع الأراضي.. وفهمنا أنه لن يشملنا في المستقبل.. يا سيادة الوزير نحن مع حزبكم الذي يناصر الفلاحين.. وأنت من هذا الحزب قبل أن تكون وزيراً.. الملاّكون حصلوا على السقف الأعلى للملكية الذي حدّده القانون.. أخذوا أفضل الأراضي حسب القانون.. ثمّ المرابعون أخذوا.. والشكرجية أخذوا.. ونحن سنبقى بواطيل.. عمّال زراعيين.. نحن.. أقصد القرية.. تحتاج إلى مدرسة ابتدائية..

قاطعه الوزير بلطف ومودّة: لحظة يا بنيّ.. قبل أن تنتقل إلى موضوع آخر.. فهمت ما تقصده أيها الشاب.. وأنا معك.. ولكن، نحن لسنا وحدنا في المجلس النيابي.. ولسنا وحدنا في الحكومة التي هي حكومة ائتلاف.. لا نستطيع دائماً إصدار قانون بالصيغة التي نريدها.. ثم إنّ القانون لن يكون بصيغته الحالية نهاية المطاف.. سنعمل من أجل تطويره..

صمت الوزير ريثما أشعل سيجارته، وتابع مخاطباً الفتى: أنا معك في ما طرحته.. ما اسمك أيها الشاب؟

– محمد سليمان يا معالي الوزير.

قال الوزير بنبرة بالغة المودّة: أنا سعيد بالتعرّف إليك وإلى أمثالك يا محمد.. الوطن بحاجة إليكم.. أين وصلت في دراستك؟

أجاب الشاب: حصلت على الشهادة الثانوية هذا العام يا معالي الوزير.

قال الوزير: عظيم .. وماذا تنوي أن تفعل؟ هل فكّرت بالكلية العسكرية؟

تلعثم الفتى.. ازدرد لعابه.. واستعصى عليه النطق. وبفضل تعاطف الوزير الواضح وتشجيعه استطاع أن يقول أخيراً: أرغب في دراسة القانون يا معالي الوزير.. أتمنى..

وعاد إلى تلعثمه مرّة أخرى، فقال الوزير مشجّعاً: قل يا محمد.. ماذا تتمنّى؟

قال محمد: أتمنّى لو درست القانون في باريس!

أطلق الوزير ضحكة إعجاب، وسأله: ولماذا في باريس؟ ألا تكفي دمشق؟
أجاب الشاب: تكفي.. حتى أنني لا أستطيع إتمام تعليمي في دمشق، على الأغلب.. ليست لدينا المقدرة.. نحتاج إلى مساعدة الدولة.. نحن يا معالي الوزير.. ثم إنّ باريس..
قاطعه الوزير ليخلصه من حرجه: اسمع يا محمد.. الكلية العسكرية خيار جيد.. ويبقى الأمر لك..
أخرج الوزير من جيبه بطاقة، وكتب عليها بضع كلمات، وناولها للشاب وهو يقول: راجعني بعد غد.. في الثامنة والنصف صباحاً، في مبنى البرلمان.. سنرى ما يمكن أن نفعله بشأن دراستك للقانون.. اتفقنا؟
التفت الوزير إلى الجميع وسألهم عمّا إذا كانت لديهم أسئلة أو قضايا أخرى؟
كانوا جميعاً قد انبهروا بالحوار الثنائي الطويل بين الفتى والوزير، فلم يحر أيّ منهم بجواب. نهض الوزير وصحبه، ورفع ذراعه مودّعاً الجميع. لكنه التفت إلى الفتى محمد قبل أن يمتطي السيارة وقال: لا تتأخّر عن الموعد يا محمد، لأني سأغادر دمشق ظهراً.

(٢)

لم يبق من أثر يستحقّ الذكر لتلك الزيارة، بعد أن غاب موكب الوزير عن الأنظار، سوى ذلك الحوار الطويل، الثنائي، الذي دار بينه وبين الفتى محمد سليمان. لقد أثار الحوار ردود فعل قوية متنوعة في مجتمع تلك القرية المجهولة، المنسية، الراكدة. وقد تفاوتت ردود الفعل بين الحسد والحقد عند البعض، والدهشة والإعجاب عند البعض الآخر.
لقد أحسّ الملاكون الجدد، أقنان أو شبه أقنان الأمس، بخطورة ما طرحه محمد، وفهموا أنّ حلاً لمشكلة إخوانهم المحرومين سوف يعني، على الأغلب، مسّاً بممتلكاتهم الجديدة، فأضمر بعضهم – ويا للعجب – ضغينة فظيعة ضدّ الفتى محمد، ابن جلدتهم!

الضغينة ظهرت على الفور، أول ما ظهرت، في ردود فعل ضرغام، وقبل أن ينفضّ الجمع. كان ضرغام ابناً لمرابع يعمل في كنف الملاكين الكبار السابقين من أبناء المدينة، وقد صار ضرغام الآن ملاكاً، وهاهو يخاطب محمد بنبرة سافرة العداء، وعلى مسمع من الجميع، فيقول: لا تتأخّر غداً يا ولد.. نريد أن نرى عملاً.. نحن لا يعنينا الكلام الفارغ!

كان ضرغام رئيساً لمجموعة من العمال المياومين من أبناء القرية، ومنهم محمد، الذي همّ بالردّ عليه لولا أن منعه صديقه عارف عبد الرحمن، طالباً إليه تجاهله، ثم تأبط ذراعه، وقاده بعيداً. لقد كان عارف ابناً لفلاح ميسور الحال أصلاً، وقد شمله الإصلاح الزراعي فتحسّن حاله أكثر. وهو حصل على الشهادة الثانوية مع صديقه محمد، وأزمع، من دون تردّد، على الانخراط في مهنة التدريس، كي يبقى على مقربة من أسرته الطيبة، المحمودة السيرة والمعشر.

قال عارف مواسياً صديقه: لا تأبه لهذا الجلف الجاهل.. ليس من الضروري ذهابك غداً إلى العمل، طالما أنك يجب أن تكون في دمشق صباح بعد غد.

أجاب محمد: بل يجب أن أذهب.. أنا أحتاج لأجرة اليوم الواحد.. أمامي مصاريف كثيرة.. أجرة الباص إلى دمشق ثلاث ليرات، ومثلها للعودة، وخمس ليرات للمبيت في فندق إذا اضطررت للمبيت.. بل ربّما احتجت للمبيت أكثر من ليلة.. وثمن الطعام.. ثمّ إنني يجب أن أذهب إلى موقع العمل لأقبض أجوري..

كان محمد متميّزاً بالعناد والصلابة إلى حدّ القسوة أحياناً، لكنه في الوقت نفسه رقيقاً، دمثاً، ومفكّراً. وقد تسنّت له قراءة عدد من الكتب الأدبية العالمية أثناء دراسته في مدينة حماة، في مركزها الثقافي، فحصّنته تلك القراءات ضدّ البدائية والهمجية، وصقلت روحه، ومنحتها عذوبة واضحة، فلم تكن ترهقه قسوة الطبيعة، ولا الجهد العضلي الشاق، بقدر ما كانت ترهقه الفظاظة البشرية، وتلك القسوة الوحشية عند البعض، التي تبدو مجانية وعبثية.

لقد راح محمد يتأمّل ويدقّق بعين خياله، بينما هو يسير إلى جانب صديقه عارف، في تقاطيع وجه ضرغام كما برزت وهو يحاول إهانته أمام الناس. كانت تنضح

بعدوانية وحش مفترس. وقد شرح لصديقه، وهو يتذكّر نصّاً أدبياً لفيكتور هيجو، كيف أنّ وجوه بعض البشر تخفي خلف جلدتها الرقيقة ظلاً لذئب، أو دبّ، أو ثعلب، أو خنزير برّي متوحش!

ضحك عارف وقال: لكنك سوف تكتشف خلف البشرة الرقيقة لأكثرية الناس ملامح بلبل، ويمامة، وحصان..

تابع محمد مقاطعاً: وخروف، وأرنب..

وانطلقا يضحكان قبل أن يدفع عارف الحديث في اتجاه آخر، حيث قال: كان حديثك أمام الوزير ممتازاً، رغم القلق الذي أثاره عند بعض الناس. أنت تعرف أنّ الأرض هنا محدودة المساحة قياساً بالاحتياجات..على أيّ حال ليس هذا موضوعنا.. هذه القضية أكبر منّا بكثير.. الأهم هو هذه الفرصة النادرة التي أتيحت لك، وهذا الموعد الهام الذي حدّده لك الوزير.

كان محمد قد بدأ يراجع الآن في ذهنه حواره مع الوزير وهو يشعر بقلق غامض: هل حدث هذا حقاً؟ هل يمكن أن تتحقّق الأماني بهذه السهولة، وبهذه السرعة؟ إنّ الوهن ينتابه أحياناً عندما يستعرض ظروفه الخاصة، وحجم الصعوبات والأخطار التي تحيط به. إنه يحلم بعواصم بعيدة يكمل فيها تعليمه الجامعي.. يحلم بأن يصبح أستاذاً في القانون.. طيلة الأشهر الماضية كان يفكّر على هذا المنوال.. هو يريد أن يفهم جيداً، بصورة صحيحة، وبطريقة عادلة: كيف ولماذا استثنتهم قوانين الإصلاح الزراعي؟! هل ينجح في الوصول إلى دمشق ومقابلة الوزير؟ تلمّس البطاقة في جيبه.. وأيّة مساعدة سوف تقدّم له، وأين هو، ابن القرية الصغيرة الفقيرة، المنسية على تخوم البادية، من دمشق، والقاهرة، وباريس وبرلين؟

(٣)

عبر سحب كثيفة من الغبار، تقاطرت العربات الخشبية ذات العجلات الأربع، التي تجرها البغال، إلى مواقع العمل في حقل الأنفاق الواسع. لقد كانت تنقل العمال المياومين، من قراهم المتفاوتة البعد إلى موقع العمل، مع شروق الشمس. وكانت العربة

التي استقلها محمد سليمان في قريته قد قطعت أكثر من عشرة كيلومترات كي تصل إلى هنا.

كانت في حقل العمل الواسع، القاحل، حفريات على شكل أنفاق طويلة، متعرجة، تستخرج منها رمال ذات خصائص جيدة ملائمة لأعمال شركة إنشاءات عالمية تنجز مشروعاً حكومياً كبيراً. وقبل أن يفترقا، ويذهب كلّ إلى موقع عمله، قال عارف مخاطباً صديقه محمد: إنها أنفاق خطرة، يخيّم عليها شبح الموت طيلة الوقت!

صحيح أنّ أسرة عارف ميسورة الحال، لكنّ يسرها لا يكفي كي تعفي ابنها من أن يكون عاملاً مياوماً. إنّ مفهوم العسر واليسر في تلك القرى يختلف عنه في البلدات الكبيرة والمدن. لقد كانا كلاهما، محمد وعارف، يعملان في نقل الرمال من جوف الأرض على ظهور الحمير. والمتعهّد، الذي يأتي بالعمال من قراهم كلّ صباح ويعيدهم إليها كلّ مساء لم يجمعهما معاً في نفق واحد.

سأل عارف: كيف هو النفق الذي تعمل فيه؟ أجاب محمد: خطر جدّاً!

كانت هناك أكثر من عشرة أنفاق متباعدة، منتشرة في الحقل الواسع، تديرها لصالحها من الباطن شركة محلية، أو متعهدون بالأحرى. وكان كلّ نفق يبدأ بحفرة عمودية كبيرة، ثم يتغلغل تحت قشرة الأرض غير السميكة. إنها أنفاق تختلف جذرياً عن تلك التي تنقب في الجبال، والتي تكون غير خطرة غالباً بفضل الجبل العالي الرابض فوقها. وقد أضاف محمد: كلّ يوم يقع انهدام، فيغيّرون اتجاه عمليات الحفر!

لذلك كانت سياسة المتعهّد أن يمنع، ما أمكنه ذلك، تجمّع الأقارب والأصدقاء وأبناء القرية الواحدة في موقع عمل واحد، أو حتى في عربة واحدة، فهو يحاول قدر المستطاع تشكيل مجموعة من العمال لا يعرف أفرادها بعضهم بعضاً، ثم يضع على رأس المجموعة جلفاً جبل على الفظاظة وحبّ الأذى، كلّ هذا تحسّباً لحوادث الانهدام، وردود فعل الأقارب إذا ما دفن أحدهم حياً! وفي الأحوال العادية، فإنّ مثل هذا الفصل يمنع التباطؤ في العمل، والانشغال بالأحاديث العائلية، ويحول أيضاً دون تمرّد أو إضراب سريع يعجز المراقبون عن إحباطه..الخ!

***

اختفى العمال من الساحة بعد أن نزلوا بسرعة إلى قيعان الحفر العمودية، التي هي بمنزلة بوابات الأنفاق، وتقدّموا تحت قشرة الأرض غير السميكة. وبالطبع، افترق الصديقان، فمضى كلّ إلى النفق الذي يعمل فيه، على أمل اللقاء في فترة الغداء وإن بصعوبة.

(٤)

كانت مهمة محمد تتلخص في مرافقة عدد من الحمير التي تحمل الرمال على ظهورها من داخل النفق إلى موقع التفريغ، وبالعكس. هو لم يكن يحتاج إلى قيادتها، بل مجرّد مرافقتها، وقلب أحمالها عن ظهورها، فهي تعرف جيداً طريق الذهاب والإياب، تسلكه بدقة وانتظام، وتتوقف تلقائياً في مكان التحميل ومكان التفريغ.

وإذا كانت الحمير تحتاج مرافقها البشري في موقع التفريغ، فإنّ محمد، من جهته، كان يحتاجها أكثر عند دخول النفق المظلم، الطويل المتعرّج، وعند الخروج منه. فهي التي كانت تقوده هنا، كما يقاد الأعمى في مكان يدخله لأول مرّة!

لقد هبطت الحمير متسارعة على المنحدر إلى قاع الحفرة/المدخل، فأسرع محمد يمسك ببردعة آخرها قبل أن تدخل في الظلام! كانت الحيوانات الصبورة، الخدومة، تمضي في طريقها جذلة نشطة. وكان إقبالها المرح على العمل هو المظهر الوحيد المنشّط، والمشجّع، في ذلك الجوّ الثقيل المحبط. وبعد خطوات قليلة صارت صلة محمد بأقرب الأشياء إليه تقتصر على يده الممسكة ببردعة الحمار، وعلى قدميه اللتين تدوسان الأرض خبط عشواء. أمّا الحيوانات فقد مضت في طريقها غير آبهة ولا معنية بالظلام.

***

لاح ضوء السراج الخافت، الذي يضعه الحفارون أمامهم دائماً، ليس للإضاءة فقط، بل لإنذارهم بفقدان الأكسجين أيضاً. كان مثل هذا الاحتمال وارداً بدوره، وخطراً جدّياً ماثلاً من أخطار الأنفاق. وقد سارعت الحمير إلى أخذ الوضعيات الصحيحة تلقائياً، بالشكل الذي يسهّل مهمة حملة الرفوش في تحميلها. كانت الحمير

مدرّبة ومعتادة إلى درجة الإتقان! وكانت عمليات الحفر تتمّ بواسطة المعاول اليدوية، ولا تحتاج إلى جهد عضلي شاقّ، فالرمال هشّة نسبياً، وما تحتاجه هو الدراية، ورباطة الجأش، فأيّة ضربة بقوة أشدّ يمكن أن تؤدّي إلى انهدام خطير، ولذلك كان العمال يتعاملون مع الرمال بروحية الفنان النحّات، بالحرص والنظرة الثاقبة!

***

صاح ضرغام، مراقب العمال، عندما وقع نظره على وجه محمد: تأخّرت كثيراً يا مراقب الحمير.. يا صديق معالي الوزير! وتابع موجّهاً كلامه للجميع: لو أنّ الحمير تعرف كيف تنزل أحمالها لأغنتنا عن استخدام أشخاص لا لزوم لهم!

كانت تلك بداية سيّئة، كئيبة، ليوم عمل طويل شاقّ، يواجهها شاب رقيق، مهذّب، يقرأ الأدب، ويحفظ الشعر، ويحلم بعواصم بعيدة، وبنيل شهادة أستاذ في القانون. وقد أضاف المراقب الجلف، الذي ينهش قلبه الحسد والحقد: ما حاجتنا إلى البواطيل.. أصدقاء الوزراء؟ فقط لو أنّ الحمير تعرف كيف تستخدم أسنانها لكان بإمكانها قلب أحمالها وسحب الخرج إلى هنا!

كان حملة الرفوش قد انتهوا من التحميل، والحمير عرفت ذلك، وبدأت تتحرّك في اتجاه الخارج. ولم يستطع محمد التزام الصمت أمام الاستفزاز المقصود، فقال وهو يهمّ باللحاق بالحمير: حتى تفعل الحمير ذلك، ينبغي أن تكون لها عقولاً مثل عقلك! فما انتهى من كلامه حتى وثب ضرغام نحوه، وأمسك بتلابيبه، غير أنّ محمّداً لم يكن بالضعيف الهيّن، فتخلّص من قبضتيه بحركة واحدة من ذراعيه، ودفعه بعيداً عنه، فتعثّر ووقع على السراج، وسمع صوت انهدام خفيف، وصاح أحد العمال: يا لطيف يا ربّ!

أشعل أحد العمال عود ثقاب بدّد الظلام، وعثر آخر على السراج المطفأ فأشعله وأعاده إلى مكانه، وتقدّم حملة الرفوش يحولون بين المتخاصمين بصمت وهم يتظاهرون بأنهم لا يتعمّدون ذلك. وزمجر ضرغام وهو يلهث: هذا آخر يوم لك في العمل هنا.. اذهب إلى مكان آخر.. اذهب إلى باريس!

أجاب محمد وهو يمضي خلف رتل الحمير الذي سبقه: ليكن!

(٥)

عند الظهيرة بلغ القيظ درجة لا تطاق، ترافقت مع زوابع صحراوية، رملية، أخذت شكل دوّامات كأنّما هي زفرات الشياطين في جهنّم. وكانت شجيرات شوكية، صغيرة ويابسة، تطوّف في الحقل الكئيب القاسي، تحملها تيارات هوائية ساخنة.

لقد صار العمال يستعجلون انتهاء استراحة الغداء كي يعودوا إلى الدهاليز الرملية الرطبة. كان العمل تحت الأرض أرحم من الاستراحة فوقها! وعلى مقربة كانت رافعة عملاقة تحمّل سيارات الشحن الكبيرة بالرمل من مواقع تجميعه. وغير بعيد نهض كوخ خشبي، مسبق الصنع ولطيف الشكل، كمقرّ مؤقّت لإدارة الحقل، ولتسديد أجور العمال المياومين. أمّا عدا ذلك، فلم يكن ثمّة إلاّ الشمس الحارقة والرياح الساخنة والغبار!

***

اختفى العمال في الأنفاق بضع ساعات أخرى، ثم غادروها، مثل الأموات يخرجون من قبورهم يوم الحشر! لقد علا الضجيج والصخب، وبدأ التسابق والتزاحم على العربات التي استعدّت لنقلهم إلى قراهم، أمّا البغال فكانت تلوك ألجمتها، وتضرب الأرض بحوافرها نافدة الصبر، استعداداً للرحلة الأخيرة الشاقة، والوصول إلى زرائبها ومعالفها.

كان عدد من العمال يتوجه نحو الكوخ، حيث المحاسب، وبيدهم إيصالات أعدّها المراقبون تتضمّن أجورهم التي يستحقونها. كان بعضهم مطروداً، وبعضهم ترك العمل من تلقاء ذاته. وكانت الرافعة العملاقة قد وضعت خرطومها الجبّار على الأرض، واستكانت كأنّما هي بدأت غفوتها حتى الصباح، والشاحنة المملوءة بآخر حمل رمل تنتظر واقفة، ومحرّكها يهدر، ريثما ينتهي المحاسب من عمله، كي تنقله مع سائق الرافعة إلى مقرّ الشركة الرئيسي. أمّا الحمير، فقد تسابقت، في قطيع كبير، متوجهة إلى حيث تجمّعها ومبيتها، وهي تحلم بالماء والشعير، وبالسكينة المؤقّتة.

***

قال ضرغام بنبرة تنضح حقداً واستفزازاً وتحدّياً: أنت لن تعمل غداً، حتى وإن

عدلت عن السفر إلى باريس! وأنا أعددت إيصال أجورك، لكني نسيته في النفق، قرب السراج، فوق الصندوق.. دفتر الإيصالات نسيته كلّه هناك.. ما رأيك؟ هل تذهب وتحضره، أم أنك لا تستطيع، ولا تجيد غير الثرثرة الفارغة أمام الوزراء؟

اندفع محمد على الفور باتجاه النفق، وقد أنساه التحدّي الفظّ كلّ حذر وحيطة، أمّا المراقب ضرغام فقد صاح وهو يشيّعه بنظره: لن ننتظرك إذا تأخّرت..إن لم تجدنا خذ عربة أخرى. وتجرّأ عامل متقدّم في العمر، فهتف مشفقاً: احذر الفخّ يا محمد.. احذر الفخّ!

لم يسمع محمد تحذير العامل، ولا تهكم ضرغام، كأنّما ألهب التحدّي ظهره بالسياط، وشلّ تفكيره كصدمة كهربائية، فاندفع كمن طاش صوابه، وقد غابت عن باله دقّة وضعه، وأنّ مقابلة الغد في دمشق معرّضة الآن للضياع في الأنفاق المظلمة، أي أنّ أحلامه العزيزة المنال، التي بدت البارحة كأنّما هي هدف في متناول اليد، صارت عرضة للتبخّر!

(٦)

قطع مسافة داخل النفق وهو يسير سيراً طبيعياً، ويشعر أنه يمضي في الاتجاه الصحيح. لقد اكتسب، بفضل التكرار، بعض الخبرة بمسالك النفق، غير أنّ الحمير كانت ترى طريقها في الظلام، بينما هو لا يرى شيئاً على الإطلاق. إنه يسير الآن وحيداً، معتمداً على حدسه، ورهافة حسّه، وإنّ أيّ خطأ بسيط، أو تشويش يطرأ على حواسه، يمكن أن يضعه في مأزق صعب.

مضى متقدّماً، لكنه أحسّ فجأة، إحساساً غامضاً إنما قوياً، أنّ آخر خطوتين خطاهما لم تكونا في الاتجاه الصحيح. تسمّر في مكانه لبرهة مرهفاً سمعه، ومستنفراً جميع حواسه. لم يكن ثمة إلاّ الظلام، والسكون التام الذي يوحي بفراغ خرافي بلا حدود!

كانت الطريقة الوحيدة، لاكتشاف ما إذا كان ضلّ طريقه أم لا، هي المضي إلى الأمام، حيث لا معنى لتوقفه في ذلك المحيط المظلم الصامت، الذي لا أبعاد له ولا

مقاييس. واصل التقدّم إلى أمام، وإذا به يصطدم بجدار هشّ. وجم للحظة، ثمّ عاد أدراجه معتقداً أنه سوف يعود من حيث أتى بالضبط، لكنه اصطدم بجدار أيضاً. توقّف عن السير، وبصعوبة واجه السؤال الصعب: هل وقعت في الفخّ؟

كان الفخّ، الذي كثيراً ما حذّره العمال من الدخول فيه دون انتباه، مكاناً واسعاً، مستديراً تماماً، ومهجوراً منذ زمن طويل بعد أن عطلته الانهدامات المتوالية وجعلته خطيراً، فتحوّل الحفارون عنه إلى اتجاه آخر. وضع محمد يده على الجدار، وراح يسحبها عليه وهو يسير بخطوات متأنّية حذرة. فكّر أنه بهذه العملية سوف تقع يده على الثغرة التي دخل منها. تساءل، وقد انتابته قشعريرة، وأحسّ بالعرق البارد يسيل بسرعة هابطاً على سلسلة عموده الفقري: هل أنا داخل الفخّ؟

عجّل الخطى قليلاً دون أن يرفع يده عن الجدار الرملي الهشّ، الذي لم يكن يصمد تحت ملامسته الخفيفة، وحدّث نفسه: لو عثرت على الفتحة التي دخلت منها فسوف أتجه يساراً، وأصل إلى موقع الحفر، حيث السراج وإلى جانبه دفتر الإيصالات.. أمّا إذا اتجهت يميناً فسوف أصل إلى خارج النفق.

طمأنه هذا التصوّر بعض الشيء، وتذكّر في تلك اللحظة ضرورة الوصول بسرعة إلى القرية، والانتقال بسرعة أيضاً إلى مركز المنطقة، حيث الطريق الدولي، وحيث تمرّ آخر حافلة للركاب في الثانية عشر ليلاً، في منتصف الليل، وهي المعروفة بحافلة البريد، فيصل دمشق في حوالي الخامسة صباحاً، ويقابل الوزير في الثامنة والنصف، و.. استيقظ بغتة على أنه قد سار طويلاً ويده على الجدار دون أن تقع على الفتحة التي دخل عبرها إلى الفخّ!

لقد بدأ يستوعب، وقد اعتراه الخوف، أنه يدور في نطاق حلقة رملية مستديرة.. كرة رملية فارغة، مغلقة تماماً.. كأنّما هو في الفضاء الخارجي، خارج نطاق الجاذبية الأرضية.. حيث العدم.. أو كأنه داخل كرة قدم عملاقة! توقف عن السير، وتجمّد كتمثال، وأصغى: الصمت، والسكون، والظلام!

أين هي تلك الفتحة؟ إنها موجودة في مكان ما.. لقد دخل عبرها.. هل وقع انهدام أغلقها ولم يشعر به؟ يا للتوقّع المروّع! لكنه أسرع يطمئن نفسه: لم يحدث انهدام.. أنا

متأكّد.. لا يمكن أن يحدث انهدام، مهما كان بسيطاً، دون أن أشعر به. وراح يدور دورات أخرى لا يدري عددها. وكيف يستطيع تعدادها دون نقطة انطلاق ونقطة انتهاء؟

لقد بدأ يفقد الإحساس بالزمن، والإحساس بحدود الأشياء. وبينما هو على هذه الحال، اكتشف فجأة أنه يلامس الجدار، بيده المرفوعة، من أعلاه، أعلى من مستوى رأسه، فأسرع يخفض يده إلى مستوى كتفه، وعاد يدور من جديد، وإذا بيده تقع على الفتحة التي دخل منها!

(٧)

بعد أن غادر محمد الفخّ أحسّ بالطمأنينة رغم أنه كان لا يزال داخل النفق. ولكن كيف وقع في ذلك التيه؟ حدث ذلك لأنّ يده كانت تمرّ دائماً على الجدار من فوق الفتحة. وكان سقف الفتحة قد غدا منخفضاً عن سقف الفخّ بسبب الانهدامات. تساءل: لماذا لم يصطدم رأسي بسقف الفتحة عندما دخلت؟ السبب هو أنه كان يسير في الظلام منحنياً دون أن يتعمّد ذلك أو يشعر به، فالذي يسير في الظلام ينحني غريزياً دون أن يعي ما يفعل، لأنه باللاشعور يريد الاطمئنان على موقع قدميه.

كان محمد فتى شجاعاً حقاً. والامتحان الذي واجهه في دهاليز النفق كان صعباً، أصعب من امتحانات الشهادة الثانوية، ومن مخاطبة وزير! وهو أصرّ على الوصول إلى مكان الحفر، فقد كان مصمّماً على إحضار دفتر الإيصالات، ليقبض أجوره من جهة، وليردّ على تحدّي ضرغام من جهة أخرى. وقد فعل، فأحضر الدفتر، وسلك طريق الخروج من النفق بنجاح، فماذا وجد في الخارج؟ كانت مفاجأة هائلة في انتظاره. هو اعتقد أنه لم يمكث في النفق سوى حوالي نصف ساعة، وإذا به يكتشف أنه أمضى تحت الأرض ساعتين وأكثر!

كانت النجوم تتلألأ في السماء الصافية، في تلك الأمسية من أماسي الصيف. الرياح الساخنة الرعناء هدأت وتحوّلت إلى نسمات رقيقة منعشة. وساحة الأنفاق الواسعة، القاحلة، مقفرة وموحشة، يتردّد في ناحية من نواحيها عواء متألّم لوحش

جائع. وفي الناحية الأخرى، على مقربة من الكوخ المقفل، قبعت تلك الرافعة العملاقة غافية، غير آبهة لكلّ ما يحيط بها. لم يكن ثمّة إنسان، لا في الساحة الواسعة ولا في محيطها!

واجه محمد الليل الذي باغته ذاهلاً، لكنه لم يتردّد لحظة واحدة، بعد أن تغلّب على ذهوله، في اتخاذ قراره بالانطلاق إلى قريته سيراً على الأقدام. إنّ مبيته هنا، في القفر، سوف يعرّضه لأخطار الليل، وفي الصباح سوف يجد نفسه، وجهاً لوجه، أمام ضرغام، فأيّ صدام سيقع بينهما؟ إنّ المسافة إلى القرية لا تقلّ عن عشرة كيلومترات، وهذا يعني أنه لن يصلها قبل منتصف الليل.. منتصف الليل موعد مرور حافلة البريد والركاب على الطريق الدولي، في مركز المنطقة، قادمة من حلب، في طريقها إلى دمشق.. لم يعد اللحاق بها ممكناً أبداً.. ضاعت الفرصة النادرة، حتى لو كان يحمل النقود!

أرسل يده إلى جيبه، وتلمّس بطاقة الوزير: لا تتأخّر يا محمد لأنني سأغادر دمشق في العاشرة والنصف..! هذا ما قاله الوزير، وقد ضاعت المقابلة، وضاع الهدف من وراء المقابلة في الأنفاق المتعرّجة المظلمة! حدّث نفسه بأسى وهو يحثّ الخطى: كان محتملاً أن يساعدني، فأسافر إلى باريس أو برلين أو القاهرة!

عاد محمد بتفكيره إلى ما مرّ به اليوم من أحداث، وراح يستعرضها بتؤدة. تأمّل في عذابات العمال، وفي الأخطار الجسيمة التي يتعرّضون لها مقابل أجور زهيدة، بالكاد تسدّ الرمق.. ثم راح يستعرض أحوال قريته.. ردود فعل بعض الناس على حواره مع الوزير.. الحسد، والحقد، والكراهية.. ثمّ محاولة إلحاق الأذى الشديد به! هل هذا معقول؟ قال لنفسه وهو يستحضر وجه ضرغام ابن قريته: يبدو أنّ الضغينة، والجشع، ليست وقفاً على فئات بعينها.. لا.. لا علاقة للفقر والغنى بهذا الأمر! ثمّ راح يفكّر في مستقبل أبناء قريته.. وفي أوضاع أسرته التي لم يشملها توزيع الأراضي، لأنها من الدرجة الرابعة في سلّم أولويات من يستفيدون، ولأنّ الأراضي محدودة المساحة فقد نفدت قبل أن يصل الدور إلى أسرته ومثيلاتها!

لماذا لا أنتسب إلى الكلية العسكرية؟ تساءل محمد وهو يحدّق في النجوم التي

ترصّع السماء! وبعد ذلك راح يراجع، من دون تفجّع ولا أسف، وضعه الشخصي الحالي. لم تكن المراجعة مطمئنة، لكنه، على الرغم من ذلك، شدّ قامته، ورفع رأسه بكبرياء، وواصل السير بخطوات قوية ثابتة. حدّث نفسه بصوت مسموع يعكس ثقة عميقة وإيماناً راسخاً: في كلّ الأحوال، ومهما تكن الظروف، سوف أتمّ دراستي الجامعية، وأحصل على شهادات عليا في القانون.

ازدادت النجوم تألّقاً، فخيّل إليه أنها تبتسم موافقة ومشجّعة. بادلها الابتسام، وهزّ رأسه بالإيجاب، كأنّما هو يقطع عهداً على نفسه ويشهدها عليه!



الظلال

(المكان والزمان: سورية – تسعينيات القرن العشرين)

تطاولت الظلال تطاولاً متوالياً، مرئياً، أمكنني تتبعه بالعين المجرّدة، مثلما لو أنني أتتبع حركة عقرب الثواني في الساعة. كان تطاولاً متدرّجاً، متواصلاً بلا تقطّع، ولا تنقّل. وقد استمرّ التطاول حتى بلغ أقصى الأفق الشرقي، ثم توقف. ليس هذا وحسب، بل إنّ ظلالنا بدورها تضخمت متعملقة أيضاً، فغطّت مساحات شاسعة من رمال الصحراء المتصلة بالأفق!

استولت عملية تطاول الظلال وتضخمها على مجمل انتباهي، فرحت أختلس النظر إليها مستثاراً مستفزّاً. أمّا الآخرون من حولي فبدوا غير آبهين للظاهرة العجائبية، أو أنهم لم يروها بسبب انشغالهم عنها، رغم أنّ الانشغال عنها غير معقول أبداً. أو لعلّها لا وجود لها أصلاً بالنسبة إليهم؟ لعلهم لا يرون شيئاً، وهذا ما يدلّ عليه انهماكهم في استعراض ومعالجة أدق تفاصيل الحياة العادية اليومية!

أحسست بالحرج دون اقتناع بالسبب، لأنني، من جهتي، أرى الظاهرة وأعيشها. أرى الظلال المتطاولة المتعملقة بوضوح. قطيعاً متضامناً تضامناً لا ضرورة ولا قيمة له بتاتاً. سرباً متعاضداً تعاضداً لا يمنع البنادق والخناجر أن تنال منه كما تشاء، بالراحة التامة. إنه تضامن، وتعاضد، عاجز عن المقاومة من أجل الوجود، وعاجز عن الزوال من الوجود!

كان قطيعاً، أو سرباً، من الظلال، لا تمايز بين مكوّناته سوى حركة أجسام الظلال. كان لكل ظلّ جسمه، وليس لكل جسم ظلّه. وقد رحت أمعن النظر، من دون أن أستطيع التأكد، فأرى أن لجميع الظلال أجسامها. وبالطبع، كان صعباً عليّ، بل مستحيلاً، المطابقة بين

الأجسام والظلال، وإحصاء عددها، من أجل التأكد، حول ما إذا كان لكل ظلّ جسمه!
تململت في وقفتي، فقلّدني ظلّي الهائل، مجسّماً تململي أضعافاً مضاعفة، مئات الأضعاف، بل آلاف الأضعاف، بل أكثر. كأنما هو يقلّد حركاتي تقليداً ساخراً. كاد ذلك يضحكني، لكنه، في الوقت نفسه، بعث في نفسي رهبة لا توصف. وقد حاولت استرداد روعي، بالنظر إلى ما يحدث على أنه لا يستحق سوى الاستخفاف والتجاهل. قلت لنفسي: «أيّة دعابات خرافية سمجة هذه؟» لكنّ محاولتي فشلت، وكدت أنفجر غاضباً، أو أفرّ مذعوراً!
كان الجميع من حولي وقوفاً، يواصلون مداولاتهم التي بدت بلا نهاية. بلا معنى ولا جدوى. وكانت تتخلل مداولاتهم أهازيج جمعيّة، تشبه العويل، يرافقها، من حين لآخر، تصفيق حادّ، مثل من يضرب كفاً بكف أسفاً وحسرة، وقد أسقط في يده. بل وكانت تعقد، من حين لآخر، حلقات رقص، يرقص فيها الجميع رقصة الديك المذبوح. وفي جميع الأحوال، سرعان ما كانوا يعودون إلى مداولاتهم المفتوحة، العقيمة، بمنتهى الجدّية!
أشحت بوجهي عمّا يحدث حولي، وحرّكت ذراعي حركة بسيطة، من الصعب ملاحظتها، فحرّك ظلّي ذراعه على مساحة شاسعة. اضطربت بشدّة، وصار الثبات في مكاني مستحيلاً. لكن، أين المفرّ، وفي أيّ اتجاه أمضي، وكيف أخرج من دائرة الظلال المحكمة؟ هل أمضي عبر الصحراء التي غطّت الأفق الشرقي؟ أم عبر المدفن الذي ملأ الأفق الغربي؟ توجهت بنظري إلى الغرب، حيث المدفن العظيم الذي حال دون رؤية أيّ مشهد سواه. بدا لي بقبابه الضخمة، وأسواره العالية، وأشجاره الحراجية العملاقة، كأثر من أزمنة غابرة!
حسمت أمري، وأطلقت ساقيّ للريح بكل طاقتهما، متعثّراً بالرمال، غارقاً في الغبار، محدّقاً في عين الشمس، وأنا على وشك البكاء. لم ينتبه الآخرون، أو لم يأبهوا، ولعلهم لم يروني أصلاً، فكيف لا أوشك على البكاء؟ أما ظلّي المتطاول، المتعملق، فقد كان منتبهاً وآبهاً، وقد انطلق يطاردني بلا هوادة، ولم يفقد اتصاله بي أبداً، لكنه، ويا للعجب، لم يخرج من دائرة الظلال، وبقي مثلها ساكناً. متحركّاً وساكناً في آن. فهو يطاردني ساكناً، بينما أنا أندفع في سيري إلى الأمام، وقد بدا لي سيري مثل مجرّد

سقطات متوالية. تساءلت برهبة وأسى : ما هو السير إلى الأمام، في حقيقته وفي المحصلة، إن لم يكن مجرّد سقطات متوالية؟

وجدتني على مقربة من المدفن العظيم، منجذباً في اتجاه بوابته: بوابة هائلة، هائلة، تتسع لعبور ألوف النعوش دفعة واحدة. كانت فاهاً فاغراً، خرافياً، يليق حقاً بعالم ما بعد الموت!

تردّدت، وتعثّرت، وتلفّت حولي حائراً، فاكتشفت، على مقربة منّي، شخصاً يسير وحيداً في الاتجاه نفسه. كان يتقدّم لا مسرعاً ولا مبطئاً، منحنياً، بل محدودباً، وقد خيّل إليّ أنه يتعمّد الانحناء، أو كأنه يتوقع أنّ مدخل المدفن منخفض، يتطلب الانحناء، فيستعد مسبقاً لولوجه منحنياً. وبما أن المدخل عظيم الارتفاع، بصورة لا تخفى على أحد، فقد خطر لي أنه ربما مدمن على الانحناء، يتوقّع في كل لحظة توبيخاً مباغتاً، أو صفعة من حيث لا يدري،على خلفية رقبته، ومن دون سبب. بل إن اتساع حدقتيه، وارتعاش شفتيه، يوحي كأنما هو وجهاً لوجه مع وحش مفترس، لا قبل له به، فهو مذعور يائس، يهمّ بالصراخ!

باختصار، كانت خطوات الشخص المترنّحة، وحدبته المصطنعة البائسة، وتعبير وجهه التعيس، ومجمل ما يبدر منه ويظهر عليه، يوحي أنه يتوقّع إما بوابة منخفضة، يخشى أن ترتطم جبهته بسقفها الحجري، وإما أنه يتوقّع، من حيث لا يدري، شتماً مقذعاً، وصفعة غادرة، أو أنه مدمن الانحناء، لا أكثر ولا أقل؟ أو لعله، بكل بساطة، يريد الحدّ من طول قامته الذي يحرجه، لأنه يراه زائداً عن حاجته، وعمّا يستحقّه، ولا يليق به، وغير متفق مع صغاره، المقنّع بهندام فاخر أنيق!

سألت نفسي، وأنا أتمعّن في الشخص الذي اقترب مني كثيراً : «ترى هل أعرفه؟». وإذا بي أكتشف أنني أعرفه! إنه حطّاب الغاب البسيط الماجن. ولكن، كيف ظهر فجأة أمامي، هنا، بعد أن انقطع عهدي به، وبالغاب، منذ عهود، وبعد أن زالا كلاهما من عالمي زوالاً تاماً؟

تذكّرت أنه كان في الغاب مواظبًا على حضور حفلات، وسهرات، يطيب له أن يلعب فيها دور المهرّج المسكين، الذي يتطاول عليه الساهرون، الماجنون، بالكلام وبالأيدي. تذكّرت أنني حضرت إحداها، فانسحبت منذ بدايتها مشفقاً، لأنني لم أطق مشاهدة

إنسان يمتهن، وإن برضاه. ولم أحضر حفلة كهذه مرة أخرى، لكني بقيت أعرف أنها حفلات مستمرة، وأسمع عما يدور فيها. يبدو لي أنه خرج من إحدى تلك الحفلات الماجنة وقد وضعوه محلّ الشخصية الرسميّة الثانية، ثم الثالثة، في البلد. إنّ هذا هو ما حدث بالفعل. أي أنّ الهذر، والمجون، واللعب، غادر مجاله الضيق، غير المعلن، إلى الحياة العامة العلنية في أعلى مستوياتها!

ولكن، إذا كان الأمر كما بدا لي، فكيف تحقق يا ترى؟ هل عيّنه أولئك المقتدرون، وهم يهزلون، ثم اندفعوا في اللعبة إلى أقصاها، فأمروه أن يخرج إلى العلن، ويلعب دور الشخصية الثانية، والثالثة، رسمياً؟ وبعد ذلك، هل صعب عليهم التراجع، أم طابت اللعبة لهم بصورتها الجديدة، الرسمية، العامة، المعلنة، فرأوا الاستمتاع بالمهرّج، في منصبيه الخطيرين المتواليين، لسنوات طويلة جداً؟

عدت أدقّق في ثياب الشخص الفاخرة، وحليّه الثمينة، وفي مشيته وهو يتقدّم في اتجاه بوابة المدفن، وإذا بي أكتشف ما جعلني أتجاوز تماماً جميع الذكريات، والأفكار والتساؤلات، بل هي تبخّرت تماماً عندما اكتشفت أنه شخص بلا ظلّ. كان حقاً جسماً بلا ظلّ! اقتربت منه، وهتفت أسأله من دون تمهيد ولا مقدّمات : « أين ظلّك يا أبا حنفي؟ أين ظلّك؟». واستدرت على الفور أطمئن على ظلّي، فوجدته متصلاً بي!

بدا الشخص غير مندهش لوجودي، وقد أجابني منصاعاً، متمتماً، وعيناه تطرفان بسرعة: « تبدّد ظلّي في الصحف، وعلى شاشات التلفزة»! قال ما قاله ببساطة، وبرضا بائس، أما أنا فلم أفهم كيف يمكن أن يتبدّد الظلّ مستقلاً، حتى لو كان هو الأصل، وكان الجسم مجرّد انعكاسه!

لكني فهمت كيف أن الشخص كان غائباً حقاً، غياباً تاماً، طيلة تلك السنين من عهديه الرسميين، اللذين شملا حياة أكثر من جيل واحد، وهاهو أمامي يتصنّع الوقار الرسمي، ولو أنّ سادته كانوا هنا الآن، لانفجروا ضحكاً من وقاره هذا، ولأشبعوه صفعاً، بينما ابتسامته البلهاء تتسع، ودموعه تترقرق!

رحت أتأمله خجلاً، وحزيناً، وإذا به يفاجئني سائلاً : «هل يعجبك عادل إمام؟» أجبته : «نعم، يعجبني»! فبدا كأنما اطمأن إلى وجود ما هو مشترك بيننا بصورة

كافية، وأنّ هذا «المشترك» أساس قويّ للثقة. وقد أضاف بنبرة جادة تماماً: «كنا أنا وهو زميلين، بل صديقين، ذات يوم، في الجامعة! طرف بعينيه، وافترّ ثغره عن ابتسامته البلهاء، وأضاف: «لكنّ عادل لم يتذكّرني حين زرته»!

لم يعد ثمة ما نقوله، فواصلنا السير معاً، وولجنا بوابة المدفن، ثم أوغلنا في دروبه المديدة الموحشة، فلاحظت أنه يتقدم لا متمهّلاً ولا متعجّلاً، وبخطوات من يقصد مكاناً محدّداً بالضبط. أما أنا فكنت أسير غير عارف أيّ شيء عن أي شيء. لقد انتابني إحساس الزائر، أو السائح، أو الضائع، فكنت أتقدّم معه، على مقربة منه، كأنه الدليل. وكيف لا وهو يتحرّك حركة العارف، المقيم في مستقرّه، غير آبه ولا منتبه لما حوله، مثل جهاز مبرمج، يؤدّي ما شحن به من دون زيادة أو نقصان!

تبعته داخل عنبر هائل الاتساع والارتفاع، حتى أنني لم أكن قادراً على رؤية بدايته التي جئنا منها، ولا على تحديد نهايته التي اتجهنا نحوها. لقد توغلنا عبر حشود من الجثث، لا تعدّ ولا تحصى. كانت أعداد قليلة منها تنتصب واقفة بكامل هندامها، وأبّهتها، وأكثر، فكأنما هي على قيد الحياة، وكأنما هي تقف من تلقاء ذاتها. غير أنني كنت متأكّداً أنّ هناك ما يسندها، وإن لم أستطع رؤيته. وكانت أعداد أكثر ممدّدة بكامل ثيابها، وزينتها، على مناضد مفروشة كالأسرّة. أما الأعداد الهائلة من الجثث، فكانت عارية تماماً، ممدّدة على مناضد رخامية، عارية بدورها تماماً، مثل تلك التي تستخدم للتشريح في المستشفيات!

توغلنا، وتوغلنا، بين الجثث التي تحيط بنا من جميع الجهات، حيث امتلأت بها الأرض، وأرفف الجدران، وانتشرت على مساحات لم تعد تظهر بداياتها ولا نهاياتها، وحيث ليس ثمة ظلال على الإطلاق!

فجأة، رأيته يتوقف لأول مرّة عن السير، ويجيل بصره فيما حوله، ثم يتوجّه إليّ وقد غمرت وجهه ابتسامته البلهاء، ويشير بإصبعه إلى إحدى المناضد الرخامية العارية، متمتماً: «أنظر.. تلك جثتي.. إنها على تلك المنضدة.. هل تراها؟». نظرت إلى حيث أشار، فرأيت جثته ممدّدة هناك فعلاً. كانت عارية تماماً، مثل غريق انتشلوه توّاً من قاع المستنقع . التفت نحوه مندهشاً، أريد الاستفسار، فلم أقع له على أي أثر!

سليم يفقد ذاكرته

(حكاية شعبية / بتصرّف)

(١)

يحكى أنّ رجلاً يدعى «سليماً» تعرّض لصنوف من المصائب المروعة المتلاحقة، فاضمحلّت ذاكرته،وأصبحت عاجزة تماماً عن إسعافه بما تختزنه من معلومات وذكريات لا يستغني عنها الإنسان في كلّ لحظة من حياته.

لقد أصيب المسكين بمرض فقدان الذاكرة، وهو مرض خطير، إذا ما أصاب الأفراد، أو الجماعات، جعلهم أدنى مستوى من بعض الحيوانات، وأقرب في صفاتهم إلى الجماد، وحوّل حياتهم إلى سلسلة من الحوادث المضحكة المبكية، فكأنما هم كرة تتقاذفها أقدام اللاعبين!

ذات صباح، استيقظ الرجل الذي طال مرضه على يد زوجته تهزّه من كتفه،وعلا صوتها يهتف بنبرة شاكية يائسة: سليم!.. سليم!.. استيقظ فقد اقتربت الظهيرة.. استيقظ.. انهض .

فتح الرجل عينيه على سعتهما بعد أن استيقظ تماماً، فوقع نظره توّا على حشرة كبيرة مجنحة تدبّ على سقف الغرفة.

تلاشى من ذاكرته تماما فوراً أيّ أثر ليد امرأته على كتفه، ولصوتها في أذنه، بل لقد تلاشى كلّ أثر لوجودها في حياته، بينما استغرقه كلّياً منظر الحشرة الطريف، الذي يقع مباشرة أمام عينيه، وهي تنساب على السقف وظهرها إلى الأسفل، في طريقها إلى هدفها المجهول، فكأنما هذه الحشرة هي كلّ ما في دنياه، وكأنما مراقبته إياها هي كلّ حياته!

مرّة ثانية باغته صوت امرأته تصرخ به: سليم! سليم!.. قلت لك انهض!

نهض على الفور، وهمّ بالسير، لولا أنّ القطة كانت تماما تحت بصره، وقد أقعت في زاوية الغرفة حيث أرسلت الشمس حزمة من أشعتها. كانت القطة تنظف بدأب وبرها لاعقة إياه بلسانها.

استغرق سليم تماماً في منظر القطة الجميلة النشيطة، وتلاشى من ذاكرته الضحلة كلّ شيء عن الحشرة المجنحة . لقد اختصر دنياه الآن منظر القطة، وتلخصت حياته في مراقبتها من دون هدف!

رفعت زوجة سليم رأسها، وأرسلت ذراعيها وبصرها في اتجاه السماء، وجأرت شاكية: يا ربّ.. يا ربّ.. أيّة مصيبة هذه المصيبة، وأيّ عذاب هذا العذاب؟.. يا ربّ.. حرمتني من الأولاد، وحوّلت زوجي إلى طفل.. بل إلى أقلّ من طفل يحبو.. يا ربّ..

وبينما هي مسترسلة في بثّ شكواها إلى السماء، كان زوجها قد تحوّل إليها، ووقف يراقبها جامدا كتمثال من رخام. استغرقه المشهد الجديد المؤثّر، فنسي كلّ شيء عن القطة. لقد تلخّصت حياته ودنياه الآن في منظر زوجته وفي مراقبتها!

كفّت المرأة المسكينة عن الشكوى وهي ترنو إلى زوجها في وقفته المحزنة، واندفعت توجّهه بحنان، وتباعاً، نحو كلّ واجب من واجباته الضرورية، ونحو كلّ حاجة من حاجاته الصباحية، فما أن انتهى بإشرافها من آخر تلك الواجبات والحاجات حتى تسمّر في مكانه، مثل قطعة من أثاث البيت، بينما انصرفت المرأة إلى إنجاز أعمالها المنزلية اللازمة.

مضى وقت ليس بالقصير قبل أن تنتبه المرأة إلى وقفة زوجها، وقد جاءت في مكان يعيق تحرّكها ويعرقل عملها، ففقدت سيطرتها على أعصابها المنهكة، وصرخت بأعلى صوتها: يا رجل.. حرام عليك.. بدل الوقوف في طريقي.. ألا تستطيع مساعدتي ولو في بعض الأعمال البسيطة؟.. ألا يمكنك الذهاب إلى الفرن وشراء الخبز؟.. الأطفال يفعلون ذلك، ويشترون الخبز...

وإذا بالرجل، ويا لدهشتها، يخرج فجأة عن صمته الذي مضت عليه أشهر طويلة، فينطق بصوت أجشّ، وبنبرة إنسان آلي: الخبز!

صعقت الزوجة وكادت لا تصدّق أذنيها. لقد كانت في حديثها عن الخبز تناجي نفسها وإن كانت تتظاهر بمخاطبة زوجها. أمّا وقد نطق أخيراً فقد استبشرت خيراً بنطقه، وأسرعت تضيف ملهوفة، وكأنها أمام فرصة نادرة تخشى أن تضيع منها: نعم، الخبز.. هل تستطيع الذهاب إلى الفرن وشراء الخبز؟

ردّد الرجل المسكين مثل الصدى، وبالصوت الأجشّ ذاته، وبالنبرة التي تشبه نبرة إنسان آليّ، ما يدلّ على أنه لم يستوعب ما طلب منه: الخبز!

صدمت المرأة، فخرجت عن طورها ثانية، واندفعت من دون وعي نحوه كالمجنونة، وراحت تدفعه بعنف إلى باب الدار وهي تصرخ: لا أريد منك شيئاً.. أغرب عن وجهي.. فقط أخرج.. لا أريد شيئاً.. لا شيء.. لا شيء.. لا شيء!

تعثّر الرجل البائس وهو يتخطى عتبة باب الدار إلى الشارع، حيث دفعته زوجته، غير أنّه - ويا للعجب - راح يردّد تباعاً، وبلا توقف، آخر كلمة ألقتها في أذنه: لا شيء.. لا شيء.. لا شيء!

ترى، هل كان ذلك تحسّناً (ولو طفيفاً) طرأ على حالته الصحية؟ ربّما! غير أنّ ذلك التحسّن الذي ظهر في قدرته على التقاط آخر كلمة أو آخر جملة سمعها، ومن ثمّ ترديدها بلا توقف، إلى أن تحلّ جملة أخرى محلّها، بدا وكأنه أسوأ من حالة الصمت المطبق التي كان عليها!

(٢)

مضى سليم يجوب شوارع المدينة هائماً على وجهه وهو يردّد بلا توقف، بوتيرة واحدة وبنبرة آلية ثابتة: لا شيء.. لا شيء! وإذا به ينتهي على شاطئ النهر، وتحت بصره تماماً صياد قعد القرفصاء، يصيد السمك بالشص، ولم يكن قد اصطاد بعد سوى ثلاث سمكات صغيرات جداً كفّت عن الحركة قبل وقت طويل. وبينما الصياد يراقب صنارته متحفّزاً وهي تغمز غمزات قوية متوالية، وقف سليم خلفه تماماً، حتى أنّ أنفاسه لفحت رقبة الصياد، وفتح عينيه على سعتهما وقد استغرقه مشهد الصيد، فتلاشى من ذاكرته كلّ ما عداه، لكنه، للأسف الشديد ظلّ يردّد: لا شيء.. لا شيء!

ولسوء الحظ أيضاً فإنّ محاولات الصياد المتكرّرة، بتبديل «الطعم» مرّة تلو المرّة، باءت جميعها بالفشل، وكلّما سحب شصّه من الماء بلا شيء، سمع فوق رأسه صوت سليم يردّد: لا شيء.. لا شيء.. لا شيء!

انتفض الصياد بعنف، وانتصب واقفاً، وضرب الأرض بقصبته، وقذف بقدمه السمكات الصغيرات جداً إلى النهر، ثم وثب إلى عنق سليم فأطبق عليها بكفيه وهو يزمجر: خاف الله يا رجل!.. يا شيطان.. يا بومة! أتقول «لا شيء، لا شيء» فيكون ما تريد.. يا غراب.. يا وجه النحس.. أتقول «لا شيء..

حشرج سليم بصعوبة بالغة، وهو يكاد يلفظ أنفاسه، مخاطباً الصياد: ماذا أقول؟ ماذا أقول؟

كانت تلك معجزة أخرى طرأت على وضعه الصحي في ذلك اليوم. فهل هو تحسّن آخر؟ ربّما! غير أنّ نجاحه في مخاطبة الصياد الهائج بجملة بائسة ساذجة بدا، فيما بعد، وكأنه أسوأ من حالة التقاط كلمة أو جملة، وترديدها بلا توقف، إلى أن تحلّ محلها جملة أخرى.

لقد فطن الصياد رغم هياجه العظيم إلى ما في السؤال من بؤس وغرابة، فأطلق عنق الرجل المسكين، وتأمّل في وجهه قليلاً، ثم تمتم متردّداً بين الجدّ والهزل، والشفقة والسخرية: ماذا تقول؟ ماذا عليك أن تقول؟ ما أدراني؟ حسن أيها الرجل الطيب.. إذا لم يكن بدّ من أن تقول شيئاً فليكن.. فليكن كلاماً طيباً.. مثلاً.. قل: المزيد يا ربّ.. المزيد يا ربّ!

عاد الصياد إلى عمله، وانطلق سليم مسرعاً لا يلوي على شيء وهو يردّد تباعاً، بلا توقّف، بصوت أجشّ يشوبه شيء من الذعر، وبنبرة إنسان آلي: المزيد يا ربّ.. المزيد يا ربّ!

(٣)

ظلّ سليم يمشي ويمشي، فمرّ ببساتين، واجتاز حدائق، واخترق شوارع مكتظة وأسواقاً صاخبة، فكأنه لم ير شيئاً ولم يسمع شيئاً ولم يلمس شيئاً! كانت دنياه وحياته

قد تلخصت في تلك الجملة التي لقّنه إياها الصياد، فهو يرددها بلا انقطاع: المزيد يا ربّ.. المزيد يا ربّ!

فجأة وجد نفسه في قلب موكب متراص من الناس. كانت تلك جنازة في طريقها إلى المقبرة، وسليم أصبح خلف النعش مباشرة، بين ثلاثة شبان أنهكهم الحزن. إنهم أبناء المتوفى، وسليم يحدّق في وجوههم المفجوعة، وهو يردّد: المزيد يا رب!.. المزيد يا ربّ!

صاح أحد الشبان: يا للوقاحة.. ماذا تقول يا رجل! وصاح الثاني: إنّه عدو حاقد يتشفّى! أمّا الثالث فقد لطم سليماً على وجهه لطمة رمته على الأرض، وخاطبه قائلاً: أيها الشامت المتشفي، الذي لا مثيل لوقاحته.. تريد أن يموت المزيد منّا؟ من أرسلك لاستفزازنا؟ من يحمل لنا كلّ هذا الحقد؟ أتقول المزيد يا ربّ!

وأمسكه من تلابيبه، ورفعه عن الأرض، ثمّ كوّر قبضته ليضربه، وإذا بسليم يصرخ وهو يحمي وجهه بكفه: ماذا أقول؟ أخبروني ماذا أقول؟

يا للوقع الذي أحدثه سؤاله العجيب ومنظره الغريب في نفوس المشيعين. لقد فهموا عموماً حالته، وهاهو أحدهم يخلصه من قبضة الشاب، ويقوده إلى خارج الموكب برفق، ويقول له: اذهب في حال سبيلك أيها المسكين.

غمغم سليم: ولكن، ماذا أقول.. ماذا أقول؟

تأمّله الرجل مليّاً، وهزّ كتفيه، وبسط ذراعيه، وأجابه وهو يبتعد: قل: ليرحمه **الله**.. ليرحمه **الله**.

فهرول سليم مبتعداً، يردّد الجملة التي لقّنه إياها الرجل من دون توقف. غير أنّ شرخاً واضحاً أصاب صوته الأجشّ، ونسبة أكبر من الذعر ظهرت في نبرته الآلية!

(٤)

في ركن جانبي، من شارع ثانوي، استوقفت سليم جيفة كلب منتنة، تحوّم فوقها وتحطّ عليها أسراب من الذباب الملوّن، فراح يمعن فيها النظر، مقترباً منها أكثر فأكثر، وهو ما لا يقوى عليه إنسان طبيعي. لقد تلخّصت الآن دنياه وحياته في الجيفة، فأشرف

عليها وهو يردّد الجملة لتي تلقاها في الجنازة: ليرحمه **الله**.. ليرحمه **الله**! ولم يمض طويل وقت حتى مرّ به أحد الشبان العابثين، الذي ما أن استوعب المشهد المدهش حتى هوى على مؤخرة عنق سليم بصفعة مدوية، أتبعها بقهقهة عالية وهو يخاطب القلّة من المارة قائلاً: أنظروا إلى هذا المعتوه! أنظروا! إنّه يترحّم على كلب ميّت! والتفت إلى سليم، ورفع كفّه ليصفعه ثانية وهو يقول: أتقول هذا أمام جيفة كلب يا رجل؟ يرحمه **الله**؟ وهمّ بصفعه، وإذا بسليم يتقهقر وهو يحمي وجهه بذراعيه، ويطلق كلمات متوسلة جعلت الشاب العابث يكفّ عن الضحك، ويعدل عن صفعه مسبلاً ذراعه، ثم يخاطبه بحذر إنما برفق: ماذا تفعل يا رجل؟ تقول عن جيفة كلب: يرحمه **الله**!

فهتف سليم ضارعاً بنبرة تستدعي الشفقة حقاً: ماذا أقول؟ ماذا أقول؟

بدت الحيرة على وجه الشاب، وأجاب: ماذا تقول؟ ما أدراني؟ ولكن هل لا بدّ من أن تقول شيئاً؟ إذا كان لا بدّ فلتقل.. مثلاً.. يا للقرف يا للنتن!

انطلق سليم من جديد هائماً وهو يردّد بلا توقف تلك الجملة التي لقنه إياها ذلك الشاب العابث. أمّا المعجزة الجديدة التي تحققت هذه المرّة فهي ظهور تعبير القرف على وجهه وهو يهمهم. لقد استعار التعبير من وجه الشاب وأظهره بنجاح! هل هو تحسّن آخر في حالته الصحية؟ وماذا سيترتب على ذلك؟ الأفضل أم الأسوأ؟

(٥)

هاهو سليم وقد وقف أمام واجهة مطعم فخم،امتدت موائده العامرة بألذّ أنواع الأطعمة مذاقا» ورائحة، حتى اجتاحت الرصيف.

يا للقرف يا للنتن!.. يا للقرف يا للنتن!

كان يدمدم بجملته وقد هدّه الجوع والتعب، وعلى وجهه تعبير القرف البائس. لكنّ جملته انطلقت قوية وواضحة، حتى أنّ بعض الرواد توقف عن تناول طعامه وراح يحملق في مصدر الصوت، وظهر الامتعاض أكثر على وجوه بعض السيدات، ورحن يتململن في مقاعدهنّ، ويلتفتن إلى مصدر الصوت كمن يطلب النجدة، أو يتوقعها في كلّ ثانية كأمر مفروغ منه!

بالفعل، تسابق عمال المطعم إلى سليم، بإيعاز من مديره، فسحبوه جانباً، وأوسعوه ضرباً ولكماً. جرّوه على الأرض، وركلوه، حتى أنّ مدير المطعم استفظع ذلك، فهرول شخصياً، وخلصه من بين أيديهم، وانتحى به جانباً، وهمس في أذنه: يا رجل! أهذا كلام يقال؟ وعلى مرأى ومسمع من الرواد؟ أتدري من هم هؤلاء الرواد؟ هل أنت مجنون؟ يا للقرف يا للنتن! من كلّفك بفعل ذلك؟ يا للقرف يا للنتن؟ أهذا كلام يقال...

دمدم سليم: ماذا أقول؟ ماذا أقول؟

أيّ صوت أصبح صوته، وأيّة نبرة نبرته، وأيّة إضافات وتعديلات طرأت عليهما؟ حتى أنّ مدير المطعم ارتبك متحيّراً، وحرّك يديه ورأسه كمن يريد أن يعتذر، وأخيراً ربّت على كتف الرجل البائس، وقال بلهجة من يرغب بالمصالحة: اذهب يا أخي.. اذهب في حال سبيلك.. ما أدراني ماذا تقول؟ وهل من الضروري أن تقول شيئاً؟ إذا كان لا بدّ فلا تنطق بكلمات فظيعة! إذا كان لا بدّ فقل كلاماً طيّباً. قل: طيّب لذيذ.. طيّب لذيذ!

(٦)

استدار سليم على عقبيه، وانطلق شبه مهرول هائماً على وجهه وهو يردّد بلا انقطاع ما لقنه إياه مدير المطعم: طيّب.. لذيذ! ولم يكن قد قطع مسافة طويلة حين وجد نفسه على بعد خطوة واحدة من شابين يتعاركان، ويتبادلان الصفعات واللكمات والركلات! واحدة من هذا، وواحدة من ذاك، بانتظام، فكأنهما يتباريان ضمن أصول يلزمانها، فلا يسمح أحدهما لنفسه بتوجيه صفعتين متواليتين، بل واحدة بواحدة، ولكلّ صفعة رنّتها المتميّزة، والجمهور بدا مستحسناً ما يجري على الرغم من مشاعر القلق التي يظهرها!

كيف اخترق سليم حلقة الجمهور المغلقة، وكيف وقف قرب الشابين المتخاصمين؟ كأنه الحكم في مباراة؟ بل هو انحشر بينهما ولاصقهما عدّة مرّات، وكلّما رنّت صفعة صاح: طيّب! وللصفعة المقابلة صاح: لذيذ! وبالطبع هو لم يتعمّد ذلك، وإنّما هي «بدت» هكذا!

كانت دنياه قد تلخصت في تلك الصفعات المتبادلة، وكانت حياته قد تلخصت

بصرامة في كلمتين: طيّب.. لذيذ! وقد ضجّ الجمهور بالضحك، إلى درجة أنّ البعض انحنى من الضحك، والبعض اقتعد الأرض، والبعض دمعت عيناه، وصارت مجموعة تردّد مع سليم، الذاهل عنهم، الذي لا يلحظهم ولا يسمعهم: طيّب.. لذيذ!

أخيراً، انتبه الشابان المتعاركان إلى ما يدور حولهما، فكفّا عن العراك دون تردّد، وتوجها كلاهما معاً نحو سليم، وانهالا عليه صفعاً ولكماً، وهما يؤنبانه بالقول: تريد اشتداد الخلاف وتأجيج النار بدلاً من إطفائها؟ من أنت، وما قصدك؟ طيّب، لذيذ.. طيّب لذيذ!

تخلّص سليم منهما بصعوبة، واحتمى بالجمهور المتحلّق مرتاعاً وهو يسأل بنبرته المؤثرة: ماذا أقول؟ ماذا أقول؟

قال أحد المتفرجين وهو يقوده برفق بعيداً عن متناول الشابين الغاضبين: ماذا تقول؟ ادع الناس لحجزهما عن بعضهما.. لمصالحتهما!

فعاد سليم يسأل: ماذا أقول؟ ماذا أقول؟

قال الرجل مستغرباً مشفقاً: إذا كان لا بدّ فقل: أيها الناس صالحوا أخويكم!

شقّ سليم مخرجاً له بصعوبة، وخلّف الناس وراءه يتبادلون التعليقات المرحة، بينما هم يتابعونه بنظراتهم وهو يبتعد بسرعة متمتماً!

(٧)

هام سليم على وجهه وقتاً ليس قصيراً، تقوده قدماه دون وعي من سوق إلى سوق، ومن ساحة إلى ساحة، ومن زقاق إلى زقاق، وهو يردّد آخر جملة التقطها من ساحة المشاجرة: صالحوا أخويكم.. صالحوا أخويكم! وإذا هو فجأة أمام معركة ضارية، صاخبة، تدور بين كلبين ضالين ضخمين، أبرزا أنيابهما حتى الجذور، وراحا يتبادلان الزمجرة والعضّ تباعاً، فوقف سليم يحدّق مشدوهاً وقد تلخصت دنياه فيهما، واقتصرت حياته على تلك الجملة الأخيرة التي تلقاها: أيها الناس صالحوا أخويكم! وسرعان ما تجمّع على مقربة منه عدد من عابري السبيل، وراحوا يتأمّلونه ويستمعون إلى ما يردّده متعجبين مبتسمين متهامسين. أمّا الكلبان فقد توقفا عن

الصراع، وانسحبا يجرّان ذيليهما بعيداً عن ذلك الحشد البشري المتزايد.

تلاشت دنيا سليم المصغّرة، المختصرة في الكلبين المتعاركين، واستمرّت حياته الملخّصة في الجملة التي واصل ترديدها بلا توقف: أيها الناس صالحوا أخويكم! وإذا بأحد «الناس» يتقدّم منه، ويصفعه وهو يقول ساخراً مؤنّباً: تقول أخوينا؟.. الكلاب إخوتنا؟ أهذا كلام؟ صالحوا أخويكم؟...

وصفعه على عنقه ثانية، فتقهقر المسكين محتمياً بساعديه من صفعة أخرى، وسأل متوسلاً: ماذا أقول؟.. ماذا أقول؟

ضجّ جمع الناس بالضحك، وعدل الرجل عن صفعه ثالثة بعد أن همّ بذلك، وقد انقلب موقفه إلى إشفاق وهو يسمع توسله، ثم بدت عليه الحيرة وهو يقول: ماذا تقول؟ ما أدراني ماذا تقول! ما حاجتك إلى ذلك! على أية حال، المفترض بالإنسان أن يزجر الكلاب المتعاركة ويطردها. قل: هشت! هشت!

فأطلق سليم ساقيه مبتعداً وهو يردّد تباعاً بنبرة زاجرة: هشت! هشت! أمّا ما عدا ذلك فلم يكن ثمّة إلاّ الخواء!

(٨)

لم يبتعد كثيراً قبل أن تبرز أمامه فجأة، وتستوقفه، دنيا جديدة، غير دنيا الكلاب الضالة. لقد وقف متسمّراً أمام دكّان صغيرة جدّاً، فيها إسكافيّ منقضّ على قطعة من الجلد يعالجها محاولاً مطّها بيديه وأسنانه وأدواته! لقد ضاق الإسكافي ذرعاً بقطعة الجلد، وأوشك أن يلقيها بعيداً وعلامات الضجر والإنهاك والتذمّر بادية بوضوح على وجهه الكئيب . في تلك اللحظة العصيبة بالضبط سمع من يهتف فوق رأسه بلا توقف: هشت! هشت!

كان ذلك كافياً تماماً لتفجير براكين غضب الإسكافي الذي ألقى ما في يديه أرضاً، وهبّ كالمجنون منقضاً على الرجل المسكين وهو يصرخ: لمن تقول هذا يا سافل؟ أأنا كلب يا كلب؟

ومن دون انتظار الردّ، أو إضاعة ثانية واحدة، انهال على صاحبنا بيديه ورجليه

وأسنانه، جميعها معاً، إلى أن أحاط بهما الناس، وخلّصوا سليماً من براثن وأنياب الإسكافي وهو على آخر رمق، بينما الإسكافي الهائج يصرخ وهو يهمّ بالعودة إلى عمله: لماذا تشتمني؟ أنا لا أعرفك فمن أرسلك لتهينني؟ أأنا كلب؟ هشت، هشت؟

وإذا بسليم يسأل بإخلاص وصدق، وبنبرة من يوشك على البكاء: ماذا أقول؟ ماذا أقول؟

فوجم الجمع لبرهة، وحملق الإسكافي في وجه المسكين مندهشاً غير مصدّق ما يسمع، ثمّ قال كالنادم، وهو يحاول كبت ما تبقى من غضبه وثورته: ماذا تقول؟ أنت حرّ في قول ما تشاء، ولكن ليكن كلاماً طيباً.. أنا رجل على باب **الله**.. أعالج قطعة الجلد لكسب لقمتي.. أشدّها وأمطّها وأمسّدها حتى تتسع بعض الشيء وتكفي لنعلين.. إنه رزقي أعالجه، فتشتمني؟ هشت،هشت! شجّعني وقل: مسّدها تكفي نعلين!

(٩)

كانت الشمس قد غابت قبل قليل. وكان سليم يجرّ ساقيه خائر القوى، ويردّد بنبرة ضعيفة، بلا توقف: مسّدها تكفي نعلين! مسّدها تكفي نعلين! وتشاء المصادفة، بل سوء الحظ، أن يجد نفسه وجهاً لوجه أمام رجل مهول، يمسّد لحيته العظيمة بكلتا يديه بلا توقف. أمعن سليم النظر في تلك اللحية مبهوراً، مدقّقاً، حتى ليكاد أنفه يخترقها، بينما هو يردّد بلا انقطاع: مسّدها تكفي نعلين، مسّدها تكفي نعلين!

صعق الرجل المهول، فرفع كفيه عن لحيته بسرعة الملدوغ، وتناول فوراً عصاه الغليظة المعلقة على ساعده، وأهوى بها على أحد كتفي الرجل البائس، وزمجر: اخرس!.. لعنة **الله** عليك.. أهذا كلام يقال لي أيها الشقي؟

حشرج سليم متوجّعاً ومتوسّلاً: ماذا أقول؟ ماذا أقول؟

رفع الرجل حاجبه الكثيف مستغرباً مستنكراً، وتساءل: ماذا تقول؟

ثم أضاف بنبرة آمرة قاطعة: لا شيء!

ومضى الرجل المهول في طريقه بخطوات واسعة، واثقة، وهو يضرب الأرض بعصاه.

وقف سليم واجماً للحظة وهو يردّد: لا شيء! لا شيء!لا شيء! وإذا بطيف زوجته يلوح أمام عينيه الدامعتين لأول مرّة منذ تركها في أول النهار!

هل كان استحضار طيفها يعني تحسّناً في حالته الصحية؟ ربّما! لكنّ التحسّن لم يقتصر على استحضار طيف زوجته، بل تذكّر أيضاً كيف كانت تدفعه بعنف خارج الدار وهي تصرخ: لا شيء! لا شيء! لا شيء!.

***

أظلاف الجنّ

(حكاية شعبية / بتصرّف)

(١)

ترجّل عبد الجبّار عن ظهر بغلته الوديعة الرشيقة، ووقف إلى جانب رأسها الجميل وزمامها في قبضته اليسرى، وراح يربّت بكفّه اليمنى على عنقها اللامع الناعم معبّراً عن رضاه، بينما بصره يتفحّص تفاصيل ونمنمات سرجها الأنيق. لقد كان زهوّه ببغلته واضحاً.

كانت بغلته النادرة، السريعة والمريحة، قد اجتازت به، بسرعة قياسية، التلال الثلاثة الكبيرة المتوالية، التي تفصل بين حقوله وبساتينه وبين البلدة/ المركز. كانت تنساب على الطرق الوعرة انسياب الماء في النهر الهادئ الذي يحدّ حقوله من جهة الجنوب.

لقد وصل عبد الجبار إلى وسط سوق البلدة الرئيسي، الذي لم تكتمل زحمته بعد، فقاد بغلته، التي أسلمته قيادها بسلاسة جعلته يشعر وكأنّه يسير لوحده، ويحسّ مزيداً من الراحة والنشاط، فأدخلها الخان الذي يودعها فيه عادة ريثما ينجز أعماله.

قال صاحب الخان وهو يتناول زمام البغلة: صباح الخيّر يا سيّد عبد الجبار.. أين أنت يا رجل؟ لم نرك منذ مدّة طويلة!

أجاب عبد الجبار متضاحكاً: وما حاجتي إلى بلدتكم؟ أنا أحتاجها مرّة واحدة في الشهر، أو الشهرين.. عندي في بستاني كلّ ما يلزمني تقريباً.

قال صاحب الخان: لكنك، ولا بدّ، تحتاج إلى رؤية الناس، وإلى محادثتهم..

فقاطعه عبد الجبار بنبرة مطمئنة واثقة: أبداً، أبداً.. عندي عمالي.. وزوجتي وأولادي.. وهناك (أضاف ضاحكاً) أبقاري وأغنامي وطيوري.. ألا يغنيني كلّ هذا عن رؤية الناس ومحادثتهم؟

قال صاحب الخان وهو يعلّق للبغلة علفها: تريد رأيي؟ أظنّ أنّ كلّ هذا لا يغنيك!

(٢)

كان عبد الجبار مالكاً لحقول واسعة، خصبة، تمتدّ إلى الشمال حيث مراعي قطعانه، وحيث مزارع حبوبه التي ترويها الأمطار، أمّا في الجنوب، على ضفة النهر، فكانت بساتينه وأشجاره التي يرويها النهر بالراحة، والتي يقوم في أحد جوانبها قصره الجميل، الشامخ بوداعة وتواضع، وكانت البساتين تستند بظهرها إلى أول التلال الثلاثة، بينما يتلقى وجهها شروق الشمس.

لقد نزل عبد الجبار إلى البلدة لإنجاز بعض شؤونه المالية. لاستلام كميات أخرى من الليرات الذهبية، ولشراء المزيد من الحليّ والمجوهرات، يضيفها إلى ما يختزنه في قصره، فتلك كانت هوايته المفضلة أو الوحيدة تقريباً.

كان عبد الجبار داهية، وخبيثاً كالثعلب فيما يتعلّق بشؤونه الخاصة، لكنه يفتقر إلى الحسّ الإنساني والذكاء الاجتماعي، الأمر الذي شكّل نقصاً فادحاً في شخصيته وفي حياته الناجحة، وهو نقص كفيل بتعريض حياته لأشدّ الأخطار.

لم يلاحظ عبد الجبار، على سبيل المثال، وبينما هو يتجوّل في السوق ساعياً وراء مصالحه، مظاهر الحزن والأسى والاضطراب والقلق التي بدت واضحة على وجوه معظم الناس، فقد كان أهالي البلدة يعانون أشدّ المعاناة من إدارة الآغا، الذي عينه السلطان قبل سنة تقريباً حاكماً جديداً، والذي تمادى إلى أبعد الحدود، وخارج نطاق كلّ تصوّر، في الاعتداء على حرمات الناس والتدخل في خصوصياتهم، وسلب ممتلكاتهم، طوراً بالحيلة وطوراً بالقوة الغاشمة، دون أن يأبه إطلاقاً لأيّ وجه حقّ، لا يردعه ضمير، ولا تحدّ من عدوانيته شفقة أو رحمة.

إنّ كلّ ما فعله عبد الجبار هو المواظبة على زيارة قصر الحاكم كلّما زار البلدة،

حاملاً معه هداياه التي اقتصرت دائماً على عدّة سلال من فواكه الموسم، والجلوس في حضرته، ومنافقته بالمديح الكاذب، وبرواية بعض الطرائف، لفترة من الوقت، ثم يمضي مسرعاً إلى عالمه الخاص مخلّفاً وراءه كلّ شيء، وغير آبه لأيّ شيء. أمّا الآغا الجديد فقد كان على العكس تماماً، فقد عرف عن عبد الجبار كلّ شيء، وجمع أدقّ التفاصيل عن أحواله جميعاً، ووضعه في برنامجه الإجرامي!

بالإضافة إلى النقص الفادح في تكوين عبد الجبار، كانت له أيضاً عيوبه الأخرى التي لا تقلّ خطورة، منها أنّه كان يعوّل على الحيل الخرافية في حماية حياته الخاصة المنعّمة، بدلاً من الاعتماد على التعاون المتبادل بينه وبين الناس. فقد أشاع عبد الجبار، على أوسع نطاق، أنّ بستانه مسكونة بالجنّ، المتآلفين والمتآخين معه، وأنه يلتقي أميرتهم جلّنار، التي هي بمنزلة أخته وحاميته، فتزوره من وقت لآخر، وتتبادل معه الأحاديث الودّية..الخ! وهو كان يصف الأميرة الجنية بالحسناء البارعة الجمال، التي لا يعيبها سوى ساقاها التي تشبه قوائم البقر، وتنتهي بأظلاف بدلاً من الأقدام! ثم يضيف متظاهراً بالحسرة: ذاك عيب الجنّ الوحيد.. إنهم يتميّزون عن الناس بأظلافهم!

لقد عرف الحاكم الجديد أدقّ التفاصيل عن الحكاية اللعينة المختلقة، حكاية الجنّ أصدقاء عبد الجبار وأميرتهم الفاتنة جلّنار، وأدخلها في برنامجه الشيطاني المتعلّق بعبد الجبار، فقد وجد فيها فجوة واسعة يمكن الدخول من خلالها بسهولة إلى العالم الخاص المنعزل لعبد الجبار.

(٣)

ما أن أنهى عبد الجبار جولته الواسعة في أسواق البلدة، وما أن اختتم مساوماته الطويلة غير العقيمة مع تجارها، وانتهى من بيع الكثير من منتجاته وشراء الكثير من الليرات والحليّ الذهبية، حتى انصرف تفكيره إلى ركوب طريق العودة، فهمّ بالانطلاق، لكنه وجم فجأة متسمّراً في مكانه. إنّ هذا المشهد يتكرّر دائماً كلّما أنهى جولته في أسواق البلدة، فهو يتذكّر في آخر لحظة ذلك الواجب الثقيل الذي لا فكاك

منه ولا مفرّ من أدائه، فعليه أن يعرّج على قصر الآغا، ويقوم بالزيارة الخاطفة المعتادة، ويقدّم فروض الطاعة والولاء، ويؤكّد المودّة والإخلاص لحامي الديار.

في كلّ زيارة للآغا كان عبد الجبار يظهر متكلّفاً صنوف البشاشة وآيات الخضوع، ويقدّم هداياه، ويسرد نوادره ورواياته الغريبة، بخاصة تلك المتعلقة بأصدقائه من الجنّ، رعايا الأميرة جلّنار، المتآخين معه والقاطنين في بساتينه، يحرسونها كأنها بساتينهم دون أن يأكلوا منها شيئاً (لأنّ الجنّ لا يأكلون بالطبع!) ودون أن يتقاضوا أيّ أجر، اللهم إلاّ المودّة والأخوّة، لأنّ الجنّ لا يتعاملون بالمادّة.. الخ، الخ!

غير أنّ عبد الجبار، لجشعه ونقص ذكائه الاجتماعي وحسّه الإنساني، لم يلاحظ مظاهر الحسد والضغينة والاحتقار التي كانت تتزايد عند الآغا، من زيارة إلى أخرى!

(٤)

في هذه الزيارة تقدّم عبد الجبار إلى الآغا الحاكم بسلّتين من الكمّثرى، فهبّ الآغا على غير عادته واقفاً، وأقبل عليه، وعلى السلّتين، هاشّاً باشّاً، وتفحّص الفاكهة بعينيه وبيديه متلمّظاً، مبدياً ضروب الإعجاب بهذا الاختيار الموفّق، وبهذه الفاكهة النبيلة اللذيذة، فكأنّما هو لم يشاهد الكمّثرى طيلة حياته! ثم تحوّل إلى ضيفه فعانقه! نعم، عانقه، وشكره جزيل الشكر على زيارته أولاً وعلى هديته ثانياً، ثم قاده برفق وحفاوة إلى حيث مجلسه العالي، في صدر القاعة الشرقية الكبرى، بطريقة احتفالية، فأجلسه عن يمينه مثل كبار الزوار من أنداد الآغا وأقرانه، وراح يخاطبه بأرقّ العبارات!

في الحقيقة، لقد اشتمّ عبد الجبار رائحة خطر عظيم، فدبّ الرعب في قلبه، لكنه لم يملك سوى التظاهر بالعكس، ومبادلة الآغا ملاطفاته وعباراته الرقيقة بألطف وأرقّ منها. وقد لاحظ تحركات غامضة يقوم بها رجال الآغا، ونظرات مريبة يلقيها عليه أبناؤه الشبان في غدوهم ورواحهم، وهم يعبرون من أمام البوابة الكبيرة المفتوحة أبوابها على مصاريعها!

ما لبثت ظنون عبد الجبار ومخاوفه أن تعاظمت حين مال عليه الآغا وهمس في أذنه، رغم خلوّ الصالة من أيّ أحد غيرهما: ها أنت قد وصلت في اللحظة المحدّدة

بالضبط، كما أبلغتني الأميرة جلّنار، وإذن، فإنّ جميع المعلومات التي نقلتها الأميرة إليّ عنك هي دقيقة مائة في المائة.. ألم تفعل (كذا وكذا) مساء البارحة؟ ألم تبع وتشتري (كذا وكذا) في السوق اليوم؟ هل اعتدت أن تخبر أحداً بيوم زيارتك للبلدة؟ أبداً! أنت لا تقوم بهذه الزيارة في يوم محدّد، وأنت لا تخبر أحداً عنها، أمّا أنا فقد عرفت بها منذ ليلة البارحة!

كان الآغا يحدّق في عيني ضيفه تحديقاً مرعباً حقاً، ومع ذلك سأله عبد الجبار بنبرة مضطربة أشدّ الاضطراب: وكيف عرفت يا سيدي؟

ابتسم الآغا ابتسامة متسامحة، وأبدى شيئاً من الدهشة الودودة، ثم قال: عجباً! تسألني كيف عرفت وقد أخبرتك أنها الأميرة جلّنار؟

ردّد عبد الجبار، وقد أسقط في يده، فهو لا يعرف ماذا يقول: جلّنار؟!

قال الآغا بنبرة وقار: نعم، الأميرة جلّنار شخصياً! يا صديقي.. بل يا أخي.. نحن منذ البارحة حلف واحد.. أسرة واحدة.. هذا ما أبلغتني إياه الأميرة.. في هذه الصالة، بل على هذه الأريكة التي نجلس عليها أنا وأنت..

وظهر تأثّر شديد على وجه الآغا، حتى أنه أمسك بذراع ضيفه وضغطها تودّداً! ورغم ذلك انفلتت من صدر عبد الجبار جملة نائحة، ضالة، ناقصة: ولكن، يا سيدي الآغا..

فمنعه الآغا من إتمام جملته، بأن وضع سبابته على فمه، مشيراً على ضيفه بالصمت، ثم قال: لا أسرار بيننا منذ اليوم.. أنا الآن واحد منكم.. نحن إخوة يا رجل.. أنا أفهم أسباب اضطرابك، وأتفهم حرصك على أن لا تغضب الأميرة بإفشاء الأسرار.. لكني لم أعد غريباً يا أخي.. إنها أختي مثلما هي أختك..بل هي حاميتي أيضاً، وأنا لن أعصي لها أمراً، ولسوف ترى كيف أتقيّد بتوجيهاتها بمنتهى الدقة والإخلاص!

هتف عبد الجبار وقد أنهكه القلق، بل الخوف: توجيهاتها؟!

قال الآغا بهدوء ووقار: نعم.. نعم، توجيهاتها.. أعطتني تعليماتها التي تتعلّق بك وبي.. بنا كلينا.. لن أكاشفك بها الآن.. إنها سلسلة من المفاجآت السارّة ستتوالى تباعاً من الآن وحتى مطلع الفجر!

(٥)

كان عبد الجبار محتجزاً، محاطاً بمظاهر من الإكرام والترحيب المعذّبة، لكنه لم يجرؤ على إبداء أيّة إشارة تدلّ على رغبته بالانصراف. لقد تناول طعام الغداء على مائدة الآغا، وحدهما فقط، ولم ينتبه إلى ما دخل جوفه من طعام، وبقيا طيلة الوقت وحدهما، وعندما أوشكت الشمس على الغروب ازدادت الجلبة، والتحركات الغريبة، وبدأت تتكشف عن استعدادات نشيطة تجري تمهيداً لاحتفال كبير.

كان أكثر ما في الأمر إثارة هو أنّ أحداً على الإطلاق لم يراجع الآغا في شأن ما يجري ترتيبه، فكأنما كلّ شيء معدّ مسبقاً، بكلّ دقة وعلى أكمل وجه. أمّا الآغا فلم يترك ضيفه ولو للحظة واحدة، حتى أنّه رافقه ليغسلا أيديهما معاً بعد الطعام.

لقد بدأت الاحتفالات بعد العشاء، فتردّدت في جهة ما من جهات القصر أصوات موسيقى وأغاني، وأهازيج غامضة الكلمات، وكان ثمة طبول تقرع، وإيقاعها أكثر الأصوات وضوحاً، وهي صدمت سمع عبد الجبار مثلما لو كانت نذر حرب، وقد عزّزت شعوره هذا لعلعة طلقات نارية، ودوي متفجّرات، لألعاب نارية على الأغلب!

حاول استدراج الآغا عدّة مرّات، بطرق غير مباشرة، ليفهم منه حقيقة ما يدور حوله، لكنّ الآغا تمسّك بتكتّمه على السرّ حتى النهاية، على أنّه مفاجأة سارّة! وهاهو أخيراً يقود ضيفه من ذراعه بكلّ الاحترام إلى قاعة أخرى فسيحة، احتشد فيها جميع وجهاء البلد، وعلى رأسهم القاضي الشرعي، وإمام المسجد الكبير، وقائد الشرطة، وشيخ التجار. كان عدد الحضور لا يقلّ عن خمسين، الأمر الذي يدلّ دلالة قاطعة على الأهمية الاستثنائية لما يرتبه الآغا.

تصدّر الآغا القاعة، حيث تنتصب بفخامة أعلى الأرائك وأوثرها، وقبل أن يجلس أجلس عبد الجبار إلى جانبه، على يمينه، ثم جلس، فجلس الحاضرون الذين كانوا وقوفاً منذ أطلّ عليهم، وعلى الفور بدأ يتلقى (هو وعبد الجبار) تحياتهم وتبريكاتهم وتهانيهم.

ظلّ عبد الجبار لدقائق كثيرة يتلقى التهاني مع الآغا، ويردّ عليها مذهولاً! ماذا يحدث؟ وأخيراً، استجمع بصعوبة بالغة شيئاً من عزيمته وجرأته، وسأل بنبرة خافتة:

ماذا يجري يا سيّدي؟ ما المناسبة يا سيّدي؟

أجاب الآغا وهو يبتسم ابتسامة عريضة: كلّ خير يا عبد الجبار.. كلّ خير.. ألم أخبرك عن سلسلة من المفاجآت الطيبة، السعيدة، المستمرّة حتى مطلع الفجر؟

(٦)

ما كاد الآغا ينهي جملته الواعدة حتى لوحظ أنّ القاضي الشرعي يتأهّب في مجلسه تأهّب من يستعدّ لمخاطبة الجميع، فتنحنح، ثم بسمل، ثم ألقى نظرة سريعة على الحضور، فساد الصمت، وتعلقت به الأبصار، وبعدئذ سمعه عبد الجبار يقول: السيد عبد الجبار وكيل العروس!

هتف عبد الجبار مرتاعاً: أيّة عروسٍ يا سيدي القاضي؟! سأله القاضي: أليست هيفاء ابنتك؟ أجاب عبد الجبار ذاهلاً: نعم، يا سيدي! قال القاضي: إذن، أنت وكيل العروس!

بدأ عبد الجبار يفهم بصعوبة ما يدور حوله، فالتفت إلى الآغا مستوضحاً من دون كلام. كان الآغا يراقبه مراقبة القط للفأر،وقد أجاب على استفساره الأخرس بالقول: إنها تعليمات الأميرة جلّنار يا عبد الجبار.. هي التي أمرت بزواج ابني طلعت من ابنتك هيفاء.. وأنا، من جهتي، لا يسعني إلاّ أن أكون راضياً، بل سعيداً بتنفيذ أوامرها!

لفظ الآغا جملته الأخيرة بنبرة تنمّ عن الانتباه للفارق بين مكانتيهما، كرجلين وكأسرتين، فسارع عبد الجبار إلى القول: هذا يشرّفني يا سيدي.. ومن أكون أنا لأحظى بشرف مناسبتكم.. ولكن.. يا سيدي، هناك شكليات لا بدّ من مراعاتها.. كما ترى .. أنا فوجئت.. ثم إنّ الأسرة ليست..

قاطعه الآغا مبتسماً، إنما بحزم: أسرتك هنا، في ضيافتنا، بكامل أفرادها.. العروس، وأمّ العروس، وإخوة العروس.. حتى حارس بيتكم موجود هنا!

مال الآغا على أذن عبد الجبار، الذي كان يتابع مصعوقاً ما يسمع، وهمس: أمرت الأميرة جلّنار، فقام أعوانها من الجنّ بنقل أسرتك إلى هنا على جناح الأثير، مع جميع أمتعتهم ولوازمهم.. نحن أهل يا رجل.. لا فرق بين بيتك وبيتنا .. ثم إننا، من جهتنا، لم

نفعل سوى ما أمرتنا به الأميرة، أختنا وحاميتنا!

حملق عبد الجبار في وجه الآغا كمن أصابه مسّ، ثم تمالك نفسه وسأل: هل يمكنني.. هل أستطيع.. هل تسمح يا سيدي برؤيتهم؟

أجاب الآغا على الفور: طبعاً، طبعاً، أنت في بيتك يا رجل! وهبّ واقفاً، وقاد عبد الجبار، متأبّطاً ذراعه، إلى خارج القاعة الكبيرة المكتظة بالضيوف!

(٧)

سار الآغا ومعه عبد الجبار عبر دهاليز القصر العديدة، المتقاطعة، الموحشة، ولبضع دقائق بدت كأنما هي ساعات، فوصلا إلى باب مغلق يقف عليه حارس فتح لهما الباب! لقد وجد عبد الجبار أسرته بكاملها داخل القاعة المحروسة، وكان الوجوم والقلق يخيمان على الأسرة المنكوبة، لكنها كانت، في الوقت نفسه، محاطة بمظاهر الاحتفال، وترتدي الثياب اللائقة بحفل عرس!

قالت زوجته موجزة الموقف: هاجمنا أشخاص يرتدون السواد من قمم رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم.. كمّمونا فغبنا عن الوعي.. واستيقظنا لنجد أنفسنا هنا!

كان الآغا يتابع حديث المرأة متظاهراً بالاستنكار والدهشة، وقد دنا من عبد الجبار وهمس في أذنه متضاحكاً: يا لها من أساليب طريفة تتبعها أختنا الأميرة جلّنار في التحضير لحفل عرس! لكنها أساليب الجنّ يا أخي، وأنت أدرى بهم مني! وبعد أن أطرق الآغا برأسه، متظاهراً بالتفكير والتأثّر، أضاف بذات اللهجة الهامسة: ولكن.. ما كان ينبغي أن يضربوا حارسكم.. لماذا يضربونه حتى يشارف على الموت؟.. الرجل يقوم بواجبه في مقاومة الإنس والجنّ دفاعاً عن بيت سيده.. فلماذا ضربوه؟.. أنت أدرى!.. أمّا نحن فنعتني به، وسوف يكون بخير!

استمع عبد الجبار إلى الآغا واجماً، لكنّ وجومه بدأ يتحول إلى ذعر شديد وضعه على حافة الانهيار، فقد تابع الآغا كلامه قائلاً: .. ثم إنني، لا أدري كيف أقول، ولا أعرف إن كان يحقّ لي إبداء ملاحظات.. هي أمرت أعوانها بنقل صندوقكم الحديدي بكلّ ما فيه إلى هنا.. في الواقع، إنه يحتوي على كنز يبهر الأبصار.. ولكن.. ولكن

ما قيمة مثل هذه الأشياء الدنيوية قياساً بالموضوع الأساسي؟ قياساً بالرابطة التي جمعت بيننا، نحن وإياكم والأميرة جلّنار؟ أوامرها أن يكون الصندوق بما فيه هديّة للعروسين الشابين.. وإذن، فليكن ما أرادته.. أليس كذلك يا أخي؟ ألا توافقني يا عبد الجبار، وأنت الأدرى بعقلها؟

عند هذا الحدّ فقد عبد الجبار كلّ قدرة على الوعي والفهم، وصار يردّد ما يقوله الآغا، ويسير معه وينفّذ توجيهاته، كأنما هو عصاه التي يتوكّأ عليها!

كان قد بقي فصل أخير مهمّ من فصول الحفل الساهر، هو انتقال كبار المدعوين، مع العريس وأصدقائه طبعاً، إلى حمّام السوق الرئيسية التي حجزها الآغا بكاملها في هذه الليلة العظيمة!

(٨)

في الحمّام، توزّع المدعوون على جميع الأقسام، فشغلوا الجوّاني، والوسطاني، والبرّاني، وتجمّع كلّ بضعة أشخاص في واحدة من المقاصير ذات الإنارة الضعيفة، وبدأوا بنضح الماء الساخن، المعدّل، بالطاسات من الأجران الرخامية، وسكبه على رؤوسهم وأجسادهم.

كان الجوّ ملفّعاً بالبخار، وكان الآغا، الذي لم يترك عبد الجبار ولو للحظة، قد اختاره لمشاركته المقصورة المخصصة له ولثلاثة من كبار الوجهاء، وقد راح يسكب بيده الماء الساخن على رأس وجسد عبد الجبار المسكين الذي بلغ حالة أشبه بالغيبوبة!

فجأة، وقع بصر عبد الجبار على ساق الآغا العارية، فارتعش جسمه وجحظت عيناه وهو يحدّق فيها. كانت ساق الآغا شبيهة بقوائم البقر، وتنتهي بظلف بدلاً من القدم!

زحف عبد الجبار على عجيزته مبتعداً بحذر، كمن يتجنّب أفعى مكوّرة، رابضة، يجب أن لا يهيّجها وأن لا تغيب عن نظره! أمّا الآغا فكان يكتم ضحكه بصعوبة، ويتظاهر بأنه لا يلاحظ ما يفعله ضيفه! وقد اقترب عبد الجبار من القاضي حتى كاد يلتصق به، وقرّب فمه من أذنه، وهمس بصوت مرتجف: سيدي القاضي، سيدي القاضي! فسكب القاضي الماء على وجهه مزيلاً رغوة الصابون عن عينيه، ونظر إلى

عبد الجبار مستفسراً. هتف عبد الجبار: أنظر يا سيدي القاضي إلى ساق الآغا! فسأله القاضي دون أن ينظر إليها: ماذا بها؟ ردّ عبد الجبار بسرعة: فقط أنظر إليها يا سيدي.. إنها.. إنها مثل قوائم البقر.. إنها مثل سيقان الجنّ! قال القاضي وهو يمدّ ساقه على طولها أمام بصر عبد الجبار: هل تقصد أنها مثل ساقي؟

كاد عبد الجبار يموت رعباً وهو يحملق في ساق القاضي، التي كانت بدورها مثل ساق الآغا، ومثل قوائم البقر، ومثل سيقان الجنّ! وأمام المفاجأة الثانية الصاعقة اختار عن وعي اللجوء إلى رئيس الشرطة، الذي كان يشاركهم مقصورتهم، لكنه قبع منفرداً في أحد أطرافها. وقد اقترب منه عبد الجبار زاحفاً وهو يلتفت خلفه، ثم بدأ يشرح له بمنتهى القلق والاضطراب ما لاحظه على سيقان الآغا والقاضي، وإذا برئيس الشرطة يمدّ ساقه على طولها أمام عينيه، ويسأله: مثل ساقي؟

كانت ساق الشرطي منتهية بظلف فظيع، متميّز، بدلاً من القدم البشرية! وعندئذ، هبّ عبد الجبار واقفاً، وغادر المقصورة مهرولاً وهو يحافظ بصعوبة على توازنه فوق الأرض الرخامية الملساء المبلّلة، بينما روّاد المقصورة الذين خلّفهم وراءه يكتمون ضحكاتهم، ويتظاهرون بالانهماك في الاستحمام، وبأنهم لم يلاحظوا فراره!

(٩)

في الجوّاني، على حافة بلاط النار خارج المقاصير، كان أحد كبار المدعوين يهمّ بالتمدّد. وقد انتعش عبد الجبار قليلاً حين عرف فيه أحد التجار الذين يتعامل معهم، فأسرع كأنما يريد أن يحتمي به، وبدأ ينقل إليه ما رآه من ظواهر عجيبة، مخيفة، داخل المقصورة، وقد وجد فيه من يشاركه مخاوفه ومحنته على الأقل، ولكن، ما كاد عبد الجبار يبدأ الشرح لصديقه التاجر، الذي كان يستمع إليه بمودة وصداقة، حتى مدّ الرجل ساقه وسأله: تقصد مثل هذه؟

ما أن وقع بصر عبد الجبار على ظلف التاجر حتى هبّ واقفاً، واندفع بكل قوته لا يلوي على شيء خارجاً من الجوّاني، مجتازاً الوسطاني بلا توقف إلى البرّاني، غير آبه للقوائم والأظلاف التي مرّ بها من دون أن تعترضه! لم يعد يرى الوجوه، بل

السيقان والأظلاف، وفي جريه إلى البرّاني وقع مرّتين على الأرض الصلدة، ولم يشعر بأيّ ألم، فقد كان ينهض ويواصل الجري بقوة أكثر دون أن يلتفت إلى الضحكات التي لم تعد مكتومة!

في اندفاعه القوي اجتاز عبد الجبار البرّاني ببضع خطوات فصار على مقربة من مدخل الحمّام الرئيسي، حيث يجلس صاحب الحمّام على أريكته العالية مثل إمبراطور، وهو يرتشف الشاي من قدح عجميّ ظريف!

ظنّ عبد الجبار أنه وضع قدمه على شاطئ الأمان عندما وقف أمام صاحب الحمّام، فبدأ يشرح له بسرعة، وبإيجاز، مشاهداته المروّعة عن الأشخاص الذين يستحمّون في الداخل. أنصت إليه الرجل باهتمام بالغ وهو يميل بجسمه نحوه، وصار يهزّ رأسه، ويرفّ بجفنيه، كمن انتقلت إليه عدوى الخوف. وقد اختتم عبد الجبار حديثه المقتضب بالقول: إنّ لهم سيقاناً غريبة.. تشبه قوائم البقر.. وتنتهي بأظلاف مثل..

وإذا بصاحب الحمّام يقاطعه وهو يعتدل في جلسته فوق الأريكة، ويمدّ ساقه على طولها أمام عينيه وتحت أنفه، ويسأله: تقصد مثل هذه؟

أمام القائمة البقرية الجديدة، وأمام الظلف الجديد، لم يعد أمام عبد الجبار سوى الاندفاع، مارقاً كالسهم عبر بوابة الحمّام، إلى الطريق! وقع مئزره فكان عارياً تماماً، غير أنّ الطريق كانت شبه خالية لحسن الحظ . لقد هام على وجهه وهو يصيح: الحمّام مسكونة بالجنّ.. سيقانهم كقوائم البقر.. لهم أظلاف كأظلاف البقر..!

لقد بقيت في الحمّام ثياب عبد الجبار، وحوائجه، وحقيبته التي فيها ليراته وحليه الذهبية ومجوهراته، التي اشتراها في النهار المنصرم، جميعها في حراسة أحد رجال الآغا الأشدّاء.. وكانت بغلته في حراسة رجلٍ آخر! من جهته، فإنه لم يعد أبداً للسؤال عنها واستردادها، بل إنّ أحداً لم يشاهده أبداً بعد تلك الليلة الغريبة العجيبة، الرهيبة. أمّا عن أسرته، ومزارعه وبساتينه، فإنّ أحداً لم يهتمّ بتتبّع مصيرها، لأنّ الناس لا يحبّون الأماكن المسكونة بالجنّ، ولا يرغبون في زيارتها، ولا يهمهم في شيء ما تؤول إليه، هي وأصحابها!

***

مقلاع داوود

(من وحي انتفاضة أطفال الحجارة - ١٩٨٩)

كان الوقت ليلاً، والظلام دامساً، والرياح العاصفة تزمجر في الخارج، وتصفع بالمطر الغزير نوافذ بيت أمّ ياسين. وبين وقت وآخر كان وميض البرق يحوّل الليل إلى نهار، ثمّ يليه الرعد فيقصف قصفاً مدوّياً، يشبه هدير الطائرات الحربية، وانفجار قنابلها، عندما تغير على المخيّمات الفلسطينية.

كانت أم ياسين جالسة قرب المدفأة، وفوق رأسها، على الجدار، صورة زوجها الشهيد، وقد انهمكت في صنع كنزة صوفية حمراء اللون. لكنها، وهي تحرّك صنارتيها بأناملها الرشيقة، الماهرة، كانت تنصت، في الوقت نفسه، إلى صخب العاصفة في الخارج، وتنصت أيضاً إلى نشرة الأخبار من إذاعة العدو، وتفكّر في شؤون عديدة أخرى.

لقد انتبهت إلى قول المذيع بأنّ الحاكم العسكري الإسرائيلي قد مدّد منع التجوّل ثلاثة أيام أخرى. فكّرت أم ياسين بالبرد الشديد في الخارج، واستعرضت في ذهنها صور الفتيان وهم يرجمون جنود العدو بالحجارة، ويمنعونهم من اقتحام المخيّم.

ومض البرق، وقصف الرعد، وزمجرت الرياح، واشتدّ وقع المطر على زجاج النوافذ، وحدّثت أمّ ياسين نفسها ساهمة عن كلّ ذلك: الأولاد يرجمون جيّداً! وتنهّدت، ورنت إلى صورة زوجها الشهيد بطرف عينها، كأنّما هي تبلّغه ذلك!

توقّفت أصابعها فجأة عن تحريك الصنارتين. كانت تنسج كنزة لحفيدها الرضيع جهاد، ابن ابنتها فاطمة. فكّرت: الأولاد يرجمون جيّداً، لكنهم لا يصيبون الهدف دائماً! كانت تستحضر صورة الجندي الإسرائيلي المدجّج بالسلاح، الذي دفعها

بعنف وأوقعها أرضاً، وشتمها، وقد عادت تحدّث نفسها: يجب أن يتمكّن الأولاد من شجّ رؤوسهم!

***

أقبل خليل من الداخل وبيده كتابه. جلس إلى جانب أمه وهو يقول: العاصفة تزداد شدّة يا أمي! كان يريد بقوله إيجاد مادة للحديث. وقد أجابت أم ياسين وهي تبتسم: إنه أوانها يا بني، وكلّ ما يحدث جميل في أوانه، حتى العاصفة!

أقبل ياسين بدوره من الداخل. كان مرتدياً ثياب الخروج كاملة. وقد قال وهو يهمّ بالتوجّه نحو باب الدار: سوف أعود بعد ساعة يا أمي.. هل تريدين شيئاً من الخارج؟

فوجئت أم ياسين بابنها مرتدياً كامل ثيابه، ويهمّ بالخروج. هو يفعل ذلك لأول مرّة. فهبّت على الفور واقفة، وألقت بالصوف الأحمر على المقعد، ثم توجهت نحو باب الدار، ووقفت أمامه مديرة ظهرها للباب، سادّة على ابنها طريق الخروج، وسألته باستغراب: إلى أين؟

ضحك ياسين، وقال متظاهراً بعدم الاهتمام: ماذا يا أمي؟ لن أتأخّر أكثر من ساعة.

ردّت الأم: الساعة الآن تقارب التاسعة.. لن أدعك تخرج في مثل هذا الوقت!

قال ياسين: سوف أكون هنا قبل العاشرة.. وعدت صديقي..

قاطعته أمه بحزم: لن تخرج!

سأل ياسين: ممّ تخافين؟ ألا تثقين بي؟ عندي موعد لا أستطيع التخلّف عنه، وسوف أخرج!

تحفّزت الأم، واستعدت لمنعه بالقوة إن اقتضى الأمر ذلك. قالت وقد كاد صوت العاصفة يطغى على صوتها: أنا أثق بك.. أنت تعمل ما تشاء طيلة النهار.. أما بعد الثامنة فلن أسمح لأيّ منكما بالخروج!

أطرق ياسين مفكّراً وقد كست ملامحه مسحة من الجدّ والعزيمة. أمّا الأم فقد أضافت وهي تتذكّر كيف رماها الجندي الإسرائيلي أرضاً، وشتمها: ما كان يجوز

أن تواعد أحداً على اللقاء ليلاً.. أنت لا تزال صغيراً.. أنت في عهدتي ورعايتي..وأنا آمرك بالعودة إلى غرفتك، ومتابعة دروسك!

خطا ياسين في اتجاهها، فتوقعت أنه قرّر تجاوزها والخروج، فصاحت: قف مكانك يا ياسين!

ارتبك الفتى وقال موضّحاً: أنا لست صغيراً يا أمي.. أنا في السابعة عشر.. وبعد أشهر سوف أغادر فلسطين لمتابعة دراستي الجامعية في الخارج.. أرجوك..

قاطعته الأم بحزم واقتضاب: لن تخرج!

تململ ياسين في وقفته، وراح ينظر في ساعته، ثم قال بنبرة مداعبة: ماذا؟ هل هو الخوف من الإسرائيليين يا أمّ ياسين؟

عادت تستحضر صورة ذلك الجندي الإسرائيلي الذي شتمها ورماها أرضاً، وأجابت: أنا لا أخشاهم.. لكني أخشاك أنت! أنت ما زلت صغيراً، تحتاج إلى الرعاية والتوجيه! فلمّا رأت ابنها يضحك تابعت: لا تجادلني يا ياسين.. أنت لم تصبح رجلاً بعد.. ولن أدعك تخرج بإرادتي..

عادت تتذكّر الجندي الإسرائيلي، فقالت: هل تستطيع إلقائي أرضاً؟ إذا كنت رجلاً فافعل.. ارمني أرضاً واخرج، ويصبح الخروج ليلاً من حقّك!

فغر ياسين فاه وهو يتأمّل في أمه المتوثبة كنمرة، ويستمع إلى كلامها المدهش، وسأل مستغرباً: هل أنت جادّة في ما تقولين؟ ألن تغضبي إذا رميتك أرضاً؟

قالت الأم جادّة، ومتحفّزة للصراع: كفاك لغواً.. تقدّم.. ارمني أرضاً، ثم اخرج حيث شئت!

توجّه ياسين نحو أمه غير مصدّق ما يسمع. قال وهو يبتسم بحنان، إنما بعزيمة وثقة: سوف أفعل، ما دمت لن تغضبي!

مدّ ذراعيه محاولاً الإمساك بأمه، دون أن يأخذ الموقف على محمل الجدّ. ولكن، ماذا حدث؟ ما كاد يضع كفّيه على كتفيها حتى فاجأته بحركة خاطفة من ذراعيها وساقها، وإذا به يقع أرضاً!

كان خليل جالساً قرب المدفأة، يتابع بشغف ما يدور بين أمه وأخيه. فلما شاهد

ياسين يقع على الأرض قهقه بصوت عال، معبّراً عن إعجابه بما فعلته أمه. أما أم ياسين، فقد توجهت إلى مقعدها وهي تقول: عد إلى غرفتك يا ياسين.. انشغل بدروسك.. أنت ما زلت صغيراً على الخروج ليلاً يا بنيّ!

أمّا ياسين، الذي أذهلته المفاجأة وأربكته، فقد نهض بسرعة، ووقف صامتاً، مبتسماً، ينظر إلى أمه بدهشة وإعجاب. وبعد أن أطرق لحظة مفكّراً، هزّ رأسه، وتوجّه إلى غرفته!

***

أسرع خليل إلى أمه، التي عادت إلى شغلها في الصوف، فعانقها ضاحكاً وهو يقول: لم أكن أتصورك قوية إلى هذا الحدّ يا أمي! أين تعلّمت المصارعة؟

مسحت أمّ ياسين على رأس ابنها الأصغر، الذي كان في الرابعة عشرة، وأجابته وهي تبتسم: تعلمتها من جدّتك.. هي كانت تفعل ذلك بالمرحوم والدك كما حدثني!

سأل خليل، وقد بدا عليه التأثّر لذكر والده الشهيد: هل شاهدت جدّتي وهي ترمي أبي أرضاً؟

ردّت أم ياسين، بينما هي تحرّك صنارتيها بمهارة، وتفكّر بالجندي الإسرائيلي، الذي شتمها ورماها أرضاً: شاهدت جدّتك تفعل ذلك بأعمامك الأصغر سنّاً، الواحد تلو الآخر. لم تسمح لأيّ واحد منهم بالخروج ليلاً قبل أن يرميها أرضاً!

عاد خليل يسأل: وما الفرق بين النهار والليل؟ نحن نشترك معظم النهار في عمليات رجم الصهاينة بالحجارة، وجهاً لوجه، وأنت لا تمانعين، بل تشجعين..

قاطعته أمه: نعم، أنا موافقة على الاشتراك مع جميع الناس، طيلة النهار، وينبغي أن تكونوا في الصفوف الأمامية، وأن تفعلوا مثل الجميع وأكثر.. أما في الليل.. الليل للدراسة، لمن هم في أعماركم!

همس خليل في أذن أمه: يا أمي.. ياسين ليس صغيراً.. أنت لا تعرفينه! وأنا لا أصدّق أنك رميته أرضاً، رغم أني رأيت ذلك بعيني!

قالت أم ياسين: هذا يكفي.. والآن اذهب إلى غرفتك وتابع دراستك.. المدارس مغلقة في معظم أيام السنة، وعليكم بذل جهد مضاعف في البيت.

***

في صباح اليوم التالي، التقى ياسين بصديقه، رئيس إحدى اللجان الضاربة. إنها اللجان التي شكلتها القيادة الوطنية الموحّدة للانتفاضة في مدن ومخيمات وقرى فلسطين. صافح رئيس اللجنة الضاربة ياسين وسأله: لماذا لم تحضر اجتماع اللجنة مساء البارحة؟ هل اعترضتك صعوبات في الطريق؟

أجاب ياسين ضاحكاً: بل اعترضتني أمي! هل تصدّق؟ رمتني أرضاً وقالت أنني مازلت طفلاً، وليس من حقي الخروج ليلاً قبل أن أصبح قادراً على رميها!

ضحك رئيس اللجنة بدوره، وسأل مستغرباً: هل رمتك أرضاً؟ هذا غير ممكن، فأنت تستطيع رمي جنديين معاً! قل الحقيقة.. ماذا حدث بالضبط؟

قال ياسين: تصوّر ما حدث! حين اقتربت منها لم يخطر في بالي رميها طبعاً.. وهل يعقل أن أفعل ذلك؟ ولكن، لم يخطر في بالي أيضاً أن تباغتني بتلك الطريقة، لأجد نفسي منكبّاً على الأرض!

راح الشابان يضحكان، وقال رئيس اللجنة الضاربة: إذن، فقد خسرت الرهان! وماذا تنوي أن تفعل من أجل حضور الاجتماع القادم؟

قال ياسين وهو يبسط ذراعيه حائراً: لا أعرف والله.. لكني لن أرميها أرضاً. قد أتسلّل دون أن تشعر بخروجي، أو أخرج في وقت مبكّر ثمّ أبرّر تأخّري في العودة إلى البيت.. لا أعرف!

قال رئيس اللجنة بهدوء ومودّة: لا تفعل ما يغضبها.. أمك سيدة عظيمة، مجاهدة، أراها دائماً تنقل الحجارة، وتحضّ الشباب على التصويب بشكل جيّد.

سأل ياسين: والاجتماع؟

قال رئيس اللجنة: سوف أبلّغك بما يجري في الاجتماعات التي لن تحضرها، وإن كنّا سنفتقد مشاركتك في الرأي وفي اتخاذ القرارات. والآن سأعطيك مهماتك.

بينما رئيس اللجنة يشرح لياسين مهماته، كانت الاشتباكات بين الفتيان وجنود العدو دائرة في مداخل المخيم. وكان أزيز الرصاص مختلطاً بهتافات الشبان المدوية. وفوق مئذنة المسجد ارتفع العلم الفلسطيني خفاقاً، ومعه خفقت القلوب.

أنهى رئيس اللجنة الضاربة شرحه بقوله: لن نسمح للعدو أبداً باختراق صفوفنا وتمزيقها. قابل جدّ ذلك الشقي المنحرف على انفراد، وحاول أن لا يراك أحد وأنت تتحدّث إليه، وأبلغه أننا رأينا حفيده مرّات عديدة وهو يتسلّل للاجتماع بالأعداء. قل له أننا لا نريد أن ننشغل به عن العدو، وأننا نطلب من عائلته الطيبة، المحترمة، منعه من مغادرة بيته ليلاً ونهاراً!

سأل ياسين وهو يحكم تغطية رأسه ومعظم وجهه بكوفيته: وبعد ذلك؟

قال رئيس اللجنة الضاربة وهو ينظر إلى الدخان الكثيف المتصاعد عند مدخل المخيم: بعد ذلك التحق بمواقع رماة الحجارة وراقب مدى التزام الجميع بتعليمات القيادة الوطنية الموحّدة.

***

كانت أم ياسين تعدّ طعام العشاء حين سمعت صرير باب الدار، فصاحت: هل عدت يا خليل؟

أجاب خليل وهو يطلّ عليها من باب المطبخ: نعم، أوصلت الكنزة، ولم أتركهم حتى ألبستها فاطمة لجهاد. يا له من طفل جميل، ذكي! كان ينظر إلى وجهي ويضحك. قالت فاطمة أنه لا يضحك لأيّ كان. هل يميّز الطفل الرضيع خاله يا أمي؟

ضحكت أم ياسين وهي تفكّر بحفيدها، بينما تابع خليل: أمي.. صنعت كنزة لبنت أختي منيرة، ولابن أختي سلمى، ولجهاد، فماذا عني؟ ألم يأت دوري بعد؟

قالت أم ياسين وهي ترفع القدر من فوق النار: هم صغار، يتعرّضون للبرد بسرعة..

دنت منه، ووضعت يدها على كتفه، وحدّقت في عينيه صامتة. كانت تفكّر بذلك الجندي الإسرائيلي الذي شتمها، ورماها أرضاً، قبل حوالي أسبوع. خرجت عن صمتها، وقالت وهي تضغط على كتف ابنها بكفّها: دعك من الكنزات يا خليل.. عندك كنزتان جيّدتان.. لكني صنعت لك شيئاً سوف يعجبك كثيراً.

سأل خليل بلهفة: ماذا يا أمي؟ هل هي كوفية مطرّز عليها العلم؟ كثيرون من رفاقي لديهم كوفيات مزينة بالعلم..

أجابت الأم وهي تقود ابنها من يده إلى خارج المطبخ: صنعت لك ما هو أفضل من ذلك.. تعال معي لتراه!

أخرجت أم ياسين من الخزانة شيئاً ملفوفاً بقطعة قماش، ومدّت يدها به إلى ابنها وهي تقول: خذ.. افتحها وانظر ما في داخلها!

فتح خليل قطعة القماش، وما أن رأى ما في داخلها حتى هتف مبهوراً: مقلاع؟

قالت الأم: أنظر.. إنه مقلاع لا مثيل له.. يغني عن بندقية.. أنظر إلى كفّته.. هي تتسع لحجر بحجمٍ بيضة الدجاجة.. أنا متأكّدة أنّ أحداً من رفاقك لا يحمل مثله!

لقد كان مقلاعاً جميلاً من جهة، ومتقن الصنع من جهة أخرى. وقد جدلته أم ياسين من خيوط ثخينة، ومرنة، ومتينة، تضمنت جميع ألوان العلم الفلسطيني. وقد أدخل خليل إصبعه في عروة المقلاع، وضمّ في كفّه حاملتيها، ولوّح به، فلم يتحرّك بالشكل المطلوب. قالت أم ياسين: هو لا يدور دورته الصحيحة إلاّ بعد وضع الحجر في كفّته!

راح خليل يتفحص تفاصيل المقلاع بإعجاب شديد، وإذا بأمه تخاطبه وهي تراقب انفعالاته: بمثل هذا المقلاع صرع داوود جالوت!

فوجئ خليل بما قالته أمه، ورفع رأسه متسائلاً، فأضافت: هناك جنديّ إسرائيلي يتوجّب عليك أن تشجّ رأسه بهذا المقلاع، وأنا سوف أدلّك عليه!

قال خليل وهو يدقّق في قسمات وجه أمه التي غدت قاسية غاضبة: سوف أشجّ رأس من تشيرين إليه يا أمي.. لكنّ الصهاينة يقولون أنّ داوود جدّهم، وأنه قتل بمقلاعه جالوت، جدّنا!

ازداد وجه أمّ ياسين اكفهراراً وقسوة، وقالت بنبرة شديدة الغضب: أستغفر الله العظيم! إنهم يكذبون كعادتهم. لا تستمع إلى تلفيقاتهم يا بنيّ. هم لا علاقة لهم، لا بجالوت ولا بداوود. هؤلاء الخزر المتهودون حديثاً. لكنهم ظلمة، مثل جالوت. أمّا داوود فكان مع المظلومين ضدّ الظالمين، وهو جدّ من أجدادنا!

كان ياسين قد دخل عليهما قبل لحظات، ووقف يستمع باهتمام إلى الحوار الدائر بينهما، وقد أضاف مكملاً حديث أمه: إذا كان جالوت جدّنا فهو مثل أبي لهب الظالم.

نحن لا ننتسب إلى الأجداد الطغاة، من أمثال النمرود، وفرعون، وجالوت، وأبي لهب. نحن ننتسب إلى أجدادنا الصالحين، المجاهدين، من أمثال إبراهيم وموسى، وداوود وعيسى ومحمد، عليهم السلام!

ختمت أمّ ياسين باقتضاب: الصهاينة ينتسبون بأعمالهم إلى الظالمين الطغاة.. إلى جالوت وليس إلى داوود!

***

في الأيام التالية ظهرت فعالية مقلاع خليل في منع جنود العدو من التقدّم، فقد كانت أحجاره تنطلق قوية، صافرة، فاعلة، مثل القنابل! وكانت أمّ ياسين تمدّ الفتيان بالأحجار، لكنها تخصّ ابنها بأحجار منتقاة بعناية، تليق بمقلاعه! وقد أحسن خليل التصويب، حتى صار قادراً على إصابة هدف صغير من مكان بعيد. وكان الجنود يقضون أوقاتاً طويلة محتمين بالجدران، وبالآليات المصفحة، من وابل الحجارة المنهمر عليهم بلا توقف.

لكنّ أمّ ياسين كانت مهتمة أكثر بالتفتيش عن ذلك الجندي الصهيوني الذي شتمها ورماها أرضاً، والذي لم يقع نظرها عليه خلال اليومين الأخيرين. وفجأة لمحته وهو يخرج من وراء إحدى المصفحات، فصاحت بابنها خليل وهي تشير إليه: تعال يا خليل. ذاك المجرم هو من أريدك أن تصوّب إليه جيّداً، وأن تشجّه!

أمعن خليل النظر حتى تعرّف تماماً على الهدف الذي تشير أمّه إليه، وقال: إنه بعيد جدّاً، ومختلط بزملائه، ولكن لماذا تريدين شجّ رأس هذا الجندي بالذات؟

لم تكن أمّ ياسين قد أخبرت أحداً بما وقع لها، فالتفتت إلى ابنها خليل، وأمرته بنبرة حاسمة: بدون أسئلة! سوف نحاول استدراجهم ليخرجوا ويتقدّموا.. أمّا أنت، فركّز انتباهك عليه وحده.. سوف نلتقي في البيت!

وتحوّلت إلى الفتيان، تشرح لهم، وتتفاهم معهم حول الطريقة التي يستدرجون بها الجنود. ولقد نجحت مناورات الفتيان في استدراج جنود العدو، وجعلهم يتقدمون بحذر، ثم صاروا يركضون ويختبئون خلف الجدران في مواقع متقدمة. أمّا خليل، فقد راح يتربّص بذلك الجندي تحديداً، ويلاحقه بنظره وهو يتنقّل متقدّماً من زاوية إلى

أخرى ومن جدار إلى آخر. حدّث نفسه، وهو يضع في كفّة المقلاع حجراً في حجم بيضة الدجاجة: الآن سوف أتمكّن منه!

***

في تلك اللحظات، وفي مكان قريب من مواقع الاشتباكات، كان ياسين يتحدّث إلى رفيقه رئيس اللجنة الضاربة: وزّعنا نداءات القيادة الوطنية الموحّدة.. ووزّعنا الإعانات على العمال الذين توقفوا عن العمل في المؤسسات الإسرائيلية.

سأل رئيس اللجنة: وما أخبار ذلك المنحرف الضال؟ فأجاب ياسين أنّ أهله سجنوه في البيت، فهو لن يغادره أبداً! قال ياسين: إنهم عائلة طيبة، وهذا الخائن هو عيبهم الوحيد! وقد أراد رئيس اللجنة أن يضيف شيئاً، لكنه توقف حين شاهد عدداً من الفتيان يركضون في اتجاههم، ثم لعلع الرصاص بغزارة.

اعترض الشابان طريق الفتيان، وسألاهم: إلى أين يا شباب؟ أجاب أحد الفتيان وهو يلهث: سوف نلتفّ على الجنود الإسرائيليين من الجهة الأخرى.. أصيب أحدهم بحجر شجّ رأسه فوقع على الأرض، وهم يطلقون النار عشوائياً! وقال فتى آخر مخاطباً ياسين: أمّك في الساحة، على مقربة من الجنود. قال ياسين: سوف أذهب معكم.

وعندما أطلّ ياسين على ميدان المعركة، من الجهة الأخرى، رأى أحد الجنود يحاول القبض على معصم أمّه، وإذا بها تباغت الجندي، وتدفعه فيقع على الأرض! صاح ياسين: أرجموهم يا شباب بأسرع ما تستطيعون! فانهمرت الحجارة كالمطر فوق رؤوس الجنود من جهة لم يكونوا يتوقعونها. أمّا الجندي، الذي كان يحاول القبض على أمّ ياسين، والذي أوقعته أرضاً، فقد تساقطت الحجارة فوقه، وصار همّه الانسحاب إلى مكان آمن. وقد ابتعدت أمّ ياسين بخطوات سريعة، ثابتة، وبرأس مرفوع، وتوارت في أحد الأزقة.

كان ياسين وخليل ينتظرانها عند منعطف، على طريق الدار. وعندما انضمت إليهما، وقفت تتأمّل خليلاً، ثم قالت: أحسنت يا خليل.. وقع المجرم على الأرض مثل كيس الشعير! وضحكت، فضحك الشابان. وقال ياسين: أنت أيضاً أوقعت الجندي

الآخر، فسقط على الأرض مثل كيس الإسمنت! لقد رأيتك من الجهة الأخرى. سألته: رأيتني من الجهة الأخرى؟

لم تنتظر جوابه، وراحت تفكّر فترى أنّ الحجارة التي انهمرت من الجهة الأخرى هي التي أنقذتها من الوقوع أسيرة، فصمتت للحظة وهي تسير بين ولديها مطرقة، ثم رفعت رأسها، وخاطبت ياسين: رأيتني من الجهة الأخرى؟ اسمع.. أعود وأكرّر.. لن أسمح لك بالخروج من البيت ليلاً إلاّ إذا رميتني أرضاً!

كانت تفكّر بينها وبين نفسها أنّ ولديها صارا رجلين، وإن قبل الأوان.. حتى خليل الصغير.. ابن الرابعة عشر.. تصرّف اليوم كرجل حقاً.

تابعت التفكير وهي تدخل معهما إلى البيت: سوف يخرجان ليلاً، إذا اقتضت الضرورات ذلك، ولن أمنعهما!



تعريف بالمؤلف

* نصر بن حسن شمالي – عربي سوري.

* من مواليد عام ١٩٤٣ في مدينة حماة.

* مقيم في دمشق منذ العام ١٩٦٤ وما زال.

* صحفي منذ مطلع الستينيات – عمل حتى العام ١٩٧٠ مراسلاً، ومحرّراً، ورئيس تحرير، ومديراً عاما لمؤسسة الوحدة، ومديراً لمعهد الإعداد الإعلامي، وكان نقيباً للصحفيين السوريين في العامين ١٩٦٦ – ١٩٦٧.

* ساهم في الحياة العامة كحزبي ملتزم (بعثي) على مدى الأعوام العشرة ١٩٦٠ – ١٩٧٠، وشغل مواقع حزبية متقدّمة.

* منذ أواخر العام ١٩٧٠، اختار أن يكون مستقلاً، غير حزبي، لا في أحزاب المعارضة ولا في أحزاب السلطة، عن قناعة وسابق تصميم وتصوّر.

* في العام ١٩٧٩، استطاع الانطلاق حراً، كناشط مستقل، فعمل في هيئة دراسات وأبحاث فلسطينية حتى العام ١٩٨٢، واشترك في نشاطات العديد من المنتديات والمؤتمرات العربية (المؤتمر القومي العربي والمؤتمر القومي الإسلامي وغيرهما) حتى العام ٢٠٠٨، حيث توقف نتيجة إحساسه باللاجدوى. وواظب على الكتابة لعدد من الصحف العربية حتى عام ٢٠١٢

* له عدد من الكتب الفكرية السياسية، ورواية، وقصص قصيرة، وقصص للأطفال.